لم تنته فصولاً

منتديات الهما

أدريان كول ، لا يزال حياً!
زوجها الغائب، كان مفقوداً منذ ست سنوات.
ظهوره المفاجىء قلب كيان جيسي راساً على عقب. كان عليها، أولاً ، تقبل فكرة أن أدريان هو حقاً ، على قيد الحياة، ثم كان عليها مواجهة واقع علاقاتهما السابقة.
أدركت جيسي أن ليس عندها اي وسيلة لمنعه من دخول حياتها ثانية... حياة تنطوي على وجود ابنها سام، البالغ من العمر ست سنوات.
ولكن كيف سيتصرف أدريان، عندما يكتشف أن هذا الولد هو ابنه بالفعل...؟

لا شك أن جيسي قد أصابها مس في عقلها لقبولها تناول العشاء مع أدريان.

حتى ولو كان عشاء عمل كيف يمكنها التركيز على العمل، وكل نظرة منه وكل حركة يأتي بها، تذكرها بحياتهما معاً فيما مضى؟

ذكرت جيسي نفسها، لقد بلغت من العمر ثمانية وعشرين عاماً، وليست ابنة الثماني عشر. وتناول العشاء معه هو وسيلة جيدة لتبرهن لنفسها، أن كل شيء بينهما قد انتهى إلى غير رجعة، وهي بحاجة لهذا البرهان كي تتعايش معه كجارين.

التقطت حقيبتها، واتجهت إلى الباب، ثم جمدت. لقد نسيت أمراً صغيراً ـ أن تكون جارة لأدريان، يعني أنه سيقابل سام. وإذا اكتشف أن سام هو ابنه، فسيحاول الحصول عليه، بتصميم من يريد أن يقهر قمة جبل إفرست.

عندها خمسة عشر دقيقة، كي تفكر في وسيلة تمنعه من اكتشاف هذا السر.

الفصل الاول

صرخت جيسي كول بأعلى صوتها، عندما رأت رجلاً يهم بركوب سيارة جاغوار خضراء، «أدريان؟ غير معقول! أدريان؟» وأقسمت في نفسها، أن هذا الرجل هو زوجها الغائب، الدكتور أدريان كول. هل هذا ممكن؟ فزوجها أدريان قد مات منذ ست سنوات. وأغمضت جيسي عينيها للحظة، عندما أسرعت السيارة الخضراء مبتعدة عنها، بعد أن تجاوزت سيارة الأجرة التي استقلتها من المطار.

استدار سائق التاكسي، بعد ما سمع صرختها، والقى عليها نظرة متفحصة، وسألها، «هل انت بخير ياسيدتي؟ يبدو وكأنك قد رأيت شبحاً.» كادت أن تجيب بأنها رأت شبحاً فعلاً، ولكنها استدركت وأجابته بأنها على ما يرام. ومن ثم أخرجت بعض النقود من حقيبتها لتدفع له أجرته.

أومأت جيسي برأسها إلى السائق وشردت مع ذكرياتها التي أثارها تشبيه السائق نفسه بالدب، فلطالما شبهت زوجها الراحل بالحيوانات. لقد كان بحجم الدب وصلابة جسمه. أما شعره البني الأحمر فيشبه هامة الأسد. طباعه مشدودة كطباع الدب وسرعة حركاته كسرعة الفهد. الرجل الذي رأته في السيارة الخضراء بدا بكل هذه الصفات. أفاقت جيسي بسرعة من ذكرياتها، وهزت رأسها مستنكرة وجود توأم لزوجها الغائب، قائلة في نفسها إن السائق على حق. فالتعب من السفر بالطائرة قد لعب بمخيلتها.

«سأساعدك في إنزال الحقائب.» قال السائق لها وهو يتفحصها بفضول: «يبدو لي من مظهرك وكأنك قطعت مسافة السفر مشياً على الأقدام.»

«إنني شاكرة لك.» أجابت جيسي وافسحت له المجال بوقوفها إلى جانب سيارة الأجرة. أنزل السائق الحقائب من صندوق السيارة وأصر على أن يحملها إلى المنزل حيث وضعها إلى جانب الباب من الداخل واستنشق رائحة عطرة فقال: «إن الأريج المنبعث من المنزل لا يدل على أنه ترك مدة أسبوعين.»

«لقد كلفت صديقة بتهوئته ووضع أعشاب نكية الرائحة داخله خلال فترة غيابي.» أجابت جيسي.

«ولهذا يختلف عن غيره. هل أساعدك بشيء آخر ياسيدتي؟»

«لا، شكراً، لقد كنت لطيفاً جداً.» أجابته جيسي وهي تمد له يدها لتعطيه أجرة السيارة. ولكن السائق رفضها قائلاً: «لا حاجة لذلك.» وأضاف، بعد أن أخذ نفساً عميقاً، بلهجة عفوية: «ربما تستطيعين تناول العشاء معي لاحقاً لنتحادث عن أسفارنا.»

لم تشعر جيسي بالإساءة من دعوة السائق لها، ولكنها ارتبكت فقالت: «ولكنك... تكلمت عن أولادك...»

«تعنين ما قلته عن رحلة ديزنيلاند؟ لقد كنت متزوجاً حينذاك. وهم يعيشون مع زوجتي السابقة الآن وأراهم في نهاية كل أسبوع. وهذا يختلف بالطبع عن عيشنا معاً.»

ضغطت جيسي بيدها على جبينها لتخفف وجع رأسها وشعرت بأن التعب قد سيطر على كامل

جسمها، وقالت: «شكراً على دعوتك لي، ولكن...»

«ربما في وقت آخر، لا شك وأنك متعبة جداً من السفر.» أكمل السائق الجملة مقاطعاً، وهو يشعر بأنه لن يكون هناك وقت آخر لدعوتها.

أدريان، كلا، إنه ليس أدريان، لا يمكن أبداً أن يظهر أدريان ثانية. إن رؤية توأم له أمر لا تستطيع تحمله نفسياً وعاطفياً. أنست هذه العواطف المتضاربة، التي أثارها التفكير بزوجها، جيسي إهتمام السائق المفاجيء بها وحملت قلبها على الخفقان بسرعة وشدة، مما جعلها تشعر بالإعياء والرجفان وبارتفاع حرارة جسمها. لم تغير السنوات شيئاً من قوة الإنفعالات التي تحس بها بمجرد التفكير بأدريان.

لماذا التفكير به لا يزال يؤثر فيها بهذه القوة؟ على الرغم من أنها لم تعش في صومعة منذ انفصالها عنه. الرجال تأثروا دائماً بجاذبيتها، كهذا السائق الذي أوصلها. ولكن الواقع أنه عندما كانت تخرج مع الرجال، كانت تخرج للرفقة فقط. ففكرة عدم وجود رجل حي يستطيع أن يحل مكان زوجها الراحل في قلبها كانت مسيطرة عليها.

إلحاح صديقتها جو الدائم بأن تتوقف عن مقارنة كل رجل تقابله بزوجها أدريان لم ينفع. وتشكيك جو المستمر، بأن أدريان لن يرجع ثانية، وإن عاد فلا يمكن أن يكون في مستوى الهالة التي بثتها له جيسي في نفسها، لم يخفف من غلواء عواطفها.

جو على صواب. على جيسي أن تتوقف عن رسم صورة لأدريان في مخيلتها بما لم يكن عليه، ومن المحتمل أن لا

يكونه أبداً. وكما أشارت عليها جو، بأنه لو كان زوجها رائعاً بهذه الدرجة، لما انفصلا عن بعض ولكانا متزوجين الآن.

كفي عن التفكير به، صرخ شيء ما في داخلها. ألا يكفي الارهاق النفسي من جراء العمل في هوليود لمدة ثلاثة أسابيع مع نجم سينمائي ذوقه في الديكور مقرف؟ الا يكفي التعب الجسماني من جراء ملاحقة الأعمال الأخرى؟

تأوهت جيسي عندما سمعت رنين الهاتف ولوهلة أرادت أن تتركه يرن من دون أن ترفع السماعة، ولكن احتمال أن يكون المتصل صديقتها جو دروري نابير جعلها ترفع السماعة وتضعها على أذنها.

أتاها الصوت عميقاً ومدندناً بأغنية مارلين ديتريش: «أهلاً، كيف حالك يا راكبة أجنحة الريح.»

وأحست جيسي بارتياح عند سماع صوت صديقتها. وأجابت: «إسمعي يا جو... لا تهمني أجنحة الريح فأنا سعيدة الآن لأن أكون في منزلي. كيف حال إبني سام؟»

«إن ابنك ووريتك، يلعب مع ابنتي ووريثتي بألعاب الفيديو وأتعجب لكون صوتيهما لا يصلان سمعك.»

«على الأقل إنه يبكي لعدم وجودي.»

«لقد بكى كثيراً في الأيام الأولى لغيابك، ولكن تعلمين كم أنا بارعة في تحويل الانتباه إلى أشياء أخرى.»

«لذلك أنت معلمة جيدة. ومربية منزل ممتازة. لقد وجدت بيتي بحالة رائعة.» قالت جيسي.

«كان ذلك بسيطاً. ستجدين الثلاجة مليئة بالطعام. وغرفة نومك قد تم تهوئتها. وساجلب لك البريد غداً حين آتي لأعيد سام.»

عند سماع اسم ابنها، امتلك جيسي شعور بالذنب لعدم تفكيرها به وقالت لجو، «ربما يجب أن آتي الآن لآخذه.»

أبدت جو معارضتها بهمهمة وقالت لجيسي إن ابنها على ما يرام وأضافت: «قلت لك قبل أن تسافري إن الوقت قد حان لتقللي من كثرة تواجدك معه. فلا تلومي نفسك على وجودك في المنزل من دونه.»

«أنت على حق.» أجابت جيسي متثائبة ومازحت جو بقولها: «هل تعتقدين أن إلقاء التحية عليه الآن عبر الهاتف سيجعل من ابني دلوع أمه؟»

«لا إذا أبقيت مكالمتك معه قصيرة. لحظة وأناديه لك.»

كاد رأس جيسي أن يسقط على صدرها وهي تنتظر سام كي يأتي إلى الهاتف.

ولكن عندما سمعت صوته يحييها انتصبت قامتها وأجابته: «مرحباً ياحبيبي. لقد عدت للتو من السفر. كيف حالك؟»

«على أحسن مايرام. لقد وصلتني بطاقات البريد التي أرسلتها. واعجبت كثيراً ببطاقة عيد البربارة التي تشع بالظلام.»

«لهذا السبب اشتريتها لك. وأعتقد الآن أنك قد أكتشفت سر شعاعها في الظلام.»

استمعت جيسي إلى صوت ابنها المليء بالحماس بصبر مقاومةً النعاس الزاحف إلى عينيها، وهو يشرح لها مبادىء إشعاع الفلوريسنت في الظلام. وهي مبادىء معقدة بالنسبة لصبي في السادسة من عمره. وعندما انتهى من الشرح طلبت منه ان يطلب إلى جو أن تأتي إلى الهاتف ثانية.

وما أن ردت جو عليها حتى قالت: «كان من المفترض أن أسألك أولاً، كيف حال الحياة الزوجية؟»

«إنها رائعة، انا أحب زوجي، وابنتي أحبته أيضاً. وهذا درس لك يا عزيزتي.»

آخر شيء تحتاجه جيسي الآن هو سماع محاضرة من صديقتها. وعلى الرغم من سرورها لعثور جو على الرجل المناسب لها ولابنتها، فليس بالضرورة ان يحصل ذلك لكل امرأة وخاصة لها. وهي غير متأكدة من أنها تريد الحصول على الرجل المناسب. وقبل أن تبدأ جو محاضرتها قالت جيسي مقاطعة: «أنا سعيدة بزواجك الناجح. يجب أن أذهب الآن قبل أن أنام وأنا ممسكة بالهاتف.»

«لقد فهمت، ولكن يجب أن تعرفي شيئاً.»

«مهما كان هذا الشيء مهماً، فباستطاعتنا الانتظار والتحدث غداً.» أجابت جيسي بصوت متحشرج من النعاس «هل قلت لك بأني رأيت أدريان؟»

«رأيت من؟»

«لم يكن هو. ولكن يشبهه تماماً. رأيته وهو يهم بركوب سيارة على طريق عائلة غراتون.»

«إذهبي إلى النوم حالاً.» قالت جو بلهجة الأمر الصادر عن معلمة مدرسة. «سآخذ الأولاد غداً لمشاهدة فيلم جديد عن الديناصور، ثم نأتي لعندك بعد الغداء. أريدك ان تنامي حتى ذلك الحين.»

«سأحاول. أعطِ سام قبلة المساء عني.»

«ولكنها الرابعة بعد الظهر الآن.»

«ليست بالنسبة لي.» وضعت جيسي السماعة في

مكانها. وكادت أن تغمض عينيها وهي تجر نفسها إلى غرفة النوم حيث رمت بنفسها على الفراش بكل ملابسها وأخلدت إلى النوم في ثوان.

وكعادتها حين تنام حلمت جيسي بأجزاء من الماضي، حين كانت تعمل بائعة في قسم الديكور لشركة غراتون، وقابلت أدريان، الشخصية التلفزيونية المشهورة للمرة الأولى والذي أتى للمخزن للبحث في تزيين شقته.

وقد لفت انتباهها فوراً برجولته وتهذيبه. وتسارعت دقات قلبها بعنف مما أعاق عليها التركيز على العمل وأجابت على استفهامه بأن مهندسة الديكور قد ذهبت إلى الغداء. وإذا أراد فباستطاعتها الاتصال بها في كافتيريا الموظفين.

أجابها أدريان: «في هذا المجال، أنا متأكد من أن خبرتك هي في مستوى خبرتها ولذلك سآخذ بمشورتك.»

قدمت جيسي باستحياء بعض الإقتراحات التي تناسب شقته. ورغبتها في أن تساله عن حياته وتأخذ فكرة بسيطة عنه جعلتها تساعده على الإختيار. ويبدو أن أدريان قد أعجب بمقترحاتها. فعاد في اليوم التالي واشترى أغراضاً كلفته ثروة صغيرة. وأتت دعوته الأولى إلى العشاء في اليوم نفسه الذي ترقت فيه إلى مساعدة تصميم.

عدة مواعيد على العشاء معه، وامتلأت أحلام جيسي بأدريان وسيطر الحب على كل احاسيسها. وذات يوم أخبرها بأنه سيغيب عدة اسابيع عنها لأنه سيحاول تسلق الجهة الجنوبية لقمة جبل إفرست.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي شعرت فيها بالخوف عليه والقلق. واحست أن قلبها يكاد أن يتوقف وهي تفكر

بهذا الجبل الرهيب الذي أودى بحياة الكثيرين ممن حاولوا ترويضه. اكتفت جيسي بالقول: «أليس هذا خطراً؟»

«بالطبع، إن الخطر هو أحد الأسباب التي تدفعني لمثل هذه الرحلات.»

تقلبت جيسي وتابعت أحلامها فتنكرت الماضي. حلمت كيف انتظرت عودته بصبر من رحلة جبل إفرست ومن رحلات كوخ ماوسن في القارة القطبية ونيو بريتن وجزيرة بابوا وغينيا الجديدة في جنوبي الباسيفكي.

وكان يعود دائماً بإنجازات علمية جعلته مشهوراً. طلب أدريان يد جيسي فور عودته من رحلة الباسيفكي وقبلت جيسي الزواج منه وهي تطير من الفرح. بعد الزواج ظهر أن أدريان قد مل السفر والرحلات واكتفى بلعب دور الزوج في البيت والمسؤول عن برامج المناخ والظواهر الطبيعية في العمل. امتلأت أيامهما بمختلف الإهتمامات والنشاطات. وامتلأت لياليهما بالحب والعاطفة. جعل أدريان هذه الليالي شهر عسل مستمراً بمقدرته على العطاء، والتقدير، وفهم احتياجات المرأة.

فجأة من دون إنذار قرر أدريان أن يكون أول رجل يقطع بزورق الكانو نهر جاردين الهائج الواقع شمالي كوينزلاند في استراليا. أخبرها قراره والحماس يملأ كيانه ثم قال: «ستلقي بي الطوافة في أعلى النهر.»

امتلأ قلب جيسي بالرعب. إن أدريان به مس من الجنون. توسلت إليه من دون فائدة. هددته بالانفصال فلم يصدقها. وكان أصعب قرار في حياتها. قرار الانفصال عنه بعد سنتين من الزواج. اقتنعت خلالها أنه سيكون الرجل الوحيد

في حياتها. ولهذا لا يمكنها تحمل الإنتظار والقلق واحتمال وقوع حادثة مميتة له.

«لقد كنتِ تعرفين أن هذا جزء من عملي عندما تزوجتني.» قال لها أدريان، بعد أن لاحقها ووجدها مختبئة عند بعض الأصدقاء.

«لقد أعتقدت أنك ستتوقف عن هذا الجنون، بعد الزواج.»

«جنون! هل هذا ما تعتقدين؟ هل تريدين مني أن أكون موظفاً جالساً وراء مكتب من التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساءً وأقضي حياتي منتظراً سني التقاعد؟»

«على الأقل ستتمتع بهذه السنين لأنك ستعيش طويلاً.»

عض أدريان على شفتيه بقسوة وقال، «هل هذه هي الحياة التي تريدين لي. أن أكون مقيداً برباط فوطة المطبخ إليك.»

«لا، لم أعن ذلك...» أجابت جيسي وقد صدمها تطور النقاش بهذا الشكل.

«تعنين ماذا... إذاً؟ لنواجه الواقع. أنتِ تريدين كلباً مطيعاً لا يتحرك إلا بأمر منكِ. احذري يا جيسي من محاولة ترويضي بهذا الشكل.»

شعرت جيسي بالمرارة وأرادت أن تفهمه أن كل ما يهمها هو سلامته، وأن حبها له لا يسمح لها بتركه يجازف بحياته في هذه الرحلات.

ولكنها لم تستطع. لقد أصبح حوارهما حوار طرشان.

«لا أحد يريد ترويضك.» قالت جيسي وهي تشعر بإحباط: «فلا أنا استطيع ترويضك ولا حتى فريق من مروضي الخيول البرية. ستفعل دائماً ما تريد.» هل كان الحصول

عليها نوعاً من التحدي له، فما أن حصل عليها حتى أخذ يبحث عن تحدياتٍ أخرى.

«إذا كان باستطاعتي أن أفعل ما أريد، لكنت حملتك الآن إلى السيارة وأرجعتك إلى البيت.»

وفهمت جيسي من كلمته الأخيرة أن إصراره على أن ترجع إلى البيت مرده مقاومتها له وليس بسبب حبه لها. فقالت: «لقد انتهى كل شيء يا أدريان.»

«لا أستطيع أن أصدق أنكِ تضحين بكل شيء جميل... في حياتنا، لأنكِ لا تستطيعين أن تنالي ما تريدين.»

لم يعد باستطاعة جيسي حبس دموعها فانهمرت بغزارة وقالت ناحبةً: «هل من الأنانية أن أريد زوجي بقربي بعيداً عن المخاطر؟»

«إلا إذا كان ذلك على حساب رجولته.» قال أدريان واتجه نحو باب الخروج. وقبل أن يصل إلى الباب استدار وقال: «لم أكن أنوي الزواج أبداً حتى تعرفت عليكِ. إنكِ إمرأة مميزة وأعتقدت أنكِ ستفهمين معنى حاجتي لاكتشاف آفاق جديدة. لقد كانت لكِ أحلامك وطموحاتك الخاصة. ماذا حدث لها الآن؟»

أدركت جيسي أن أدريان يلمح إلى استقالتها من الوظيفة إثر الزواج بعد أن كانت تطمح للوصول إلى رئاسة شركة غراتون، مقنعة نفسها بأن أدريان يحتاجها في المنزل.

وأكمل أدريان كلامه بصوت له برودة الثلج: «اعتقدت أنك ستتسلقي الى الأعالي معي لا أن تحاولي جري الى الأسفل.»

«أنا أحبك يا أدريان.» قالتها بصوت رقيق وخافت.

«لو كان ذلك حقاً لكنت فهمتني.» رد عليها أدريان بعد أن

دلف من الباب ووقف كأنه صورة معلقة في إطار. واستطرد وكأنه يكلم نفسه: «أتمنى أن يأتي يوم تريدين فيه شيئاً لنفسك. ثم يأتي شخص ما ليأخذ هذا الشيء منك. وإذا كان هناك عدالة في هذه الحياة، أتمنى أن لكون هذا الشخص، لكي تعرفي كم هو مؤلم خسارة الشيء الذي تريدين.»

لم تغب عن ذهن جيسي هذه اللعنة بعد رحيله. وازداد تأثيرها عندما اكتشفت أنها حامل منه. هل ينفذ أدريان وعيده ويأخذ الطفل بعيداً عنها؟ على الرغم من غيابه عنها طوال مدة الحمل في غينيا الجديدة وبعدها في افريقيا الوسطى.

كان أدريان مفقوداً لعدة أشهر عندما ولد سام. وبعد انقضاء ست سنوات على اختفائه، اعتبر أنه مات في الأدغال. لم يعرف ابداً أن له ولداً.

علت الإبتسامة وجهها وهي تحلم بوجه ابنها الطفولي. وجود سام معها أعانها كثيراً خلال فترة انتظارها المؤلم لعودة أدريان. فعلى الرغم من انفصالهما كانت جيسي تتبع أخباره من جميع المصادر. وكانت ضربات قلبها تسرع كلما اتت إحدى الصحف على ذكره. بكت طويلاً عندما أعتبروه ميتاً وكادت أن تصاب بانهيار عصبي لولا أن سام يحتاجها.

ومع انشغالها بتربيته واهتمامها بمتطلباته العقلية والنفسية لم يعد لها وقت كافٍ لأحزانها.

في تلك الأيام لم يكن سام - ابنها الخارق الذكاء - العون الوحيد لها. فقد تعرفت في المستشفى، عندما أنجبت سام، على امرأة سرعان ما أصبحت صديقتها الحميمة التي ساعدتها على إبقاء معنوياتها عالية. جو - صديقتها - كانت أرملة ووضعت ابنتها بعد ساعات من ولادة سام.

وشاركت غرفة المستشفى مع جيسي. زوجها تورن كان من شرطة النجدة وكان قد قتل وهو يحاول أن يساعد أحد سائقي الشاحنات العالق بين السيارة والقاطرة، عندما ارتد مفصل القاطرة وقضى عليه.

«كم كان مؤسفاً ورهيباً.» كان تعليق جيسي عندما سمعت قصة حياة جو. وقبضت بشدة على حافة الفراش من تألمها لما سمعت.

«لقد عشت مع هذا الاحتمال، أن يقتل في احد الأيام خلال إحدى عمليات الانقاذ، طويلاً ومع ذلك لم يخفف هذا التوقع شيئاً من الألم عندما وقع الحادث. أشكر الله الآن لإعطائه ابنتي نيل كي أتذكره بها.»

الله يعوض على المتألمين - فكرت جيسي - ولكن زوج جو قتل وهو يحاول أن ينقذ حياة إنسان آخر بخلاف زوجها الذي قضى على حياته بهوسه غير المنطقي بالمغامرات. وتخيلت أدريان ملقى في الأدغال. كيف يمكن أن يبرر المخاطرات التي ركبها وقضت عليه في النهاية؟

انتقلت جيسي بعد ذلك لتقيم مع جو في منزلها الريفي المنعزل في أدلايد. يتشاركان في النفقات وتربية الولدين. ووقفتا بجانب بعضهما البعض في الأوقات العصيبة. ولولا تشجيع جو المعنوي لها لما استطاعت الصمود بعد خسارة أدريان. جو، الآن، تزوجت ثانية من إطفائي كان يعمل مع زوجها الراحل. بعض الناس لا يتعلمون أبداً. حياة الأطفائي معرضة للخطر أيضاً مثل حياة شرطي النجدة.

ولكن جيسي تعلمت. لن تثق أو تسلم قلبها إلى أي رجل مرة أخرى. «أبداً، أبداً.» ارتفع صوتها

وهي نائمة تتقلب من جانب إلى آخر.

فتحت جيسي عينيها وبقيت بلا حراك، تنتظر عودة دقات قلبها إلى سرعتها العادية. أين أنا؟ وتذكرت أنها في بيتها وعلى فراشها. الساعة تقترب من العاشرة صباحاً ويعني هذا أنها نامت لأكثر من تسع عشرة ساعة.

وتذكرت أنها كانت تحلم بأدريان وسام وجو. وتذكرت أنها رأت رجلاً يشبه أدريان كتوأم وهو الذي فتح الباب لذكرياتها كي تتدفق كالفيضان. كادت عدة مرات أن تقسم أنها قد سمعت صوت أدريان خلال نومها.

وعندما أفاقت تماماً، وصل إلى أذنيها عبر نافذة غرفة النوم المفتوحة جزئياً صوت رجل، مما جعل عضلاتها تتقلص. إن صوت هذا الرجل يشبه صوت أدريان. هل هي ما تزال نائمة تحلم وتظن نفسها مستيقظة؟

كفّي عن هذا الهوس، قالت في نفسها، واستدارت لتضع رجليها على حافة السرير. إنها تحتاج إلى حمام ساخن لتستعيد حالتها النفسية العادية. وينعشها في الوقت نفسه. مشت جيسي بتمهل إلى النافذة، رفعت الستارة ونظرت إلى الخارج.

صرخت جيسي باستنكار: «يا الهي!» عندما رأت حديقة منزلها الصغير، المكون من دورين وكان سابقاً بيت حراس أملاك عائلة غراتون الشاسعة. وقد كان يفصل هذا البيت القائم على رقعة صغيرة من الأرض عن باقي الأملاك جدار من نبات الأضاليا المتلاصق بعضه على بعض.

هذا ما كان قبل سفرها الأخير. أما الآن فقد رأت من نافذتها أن الأضاليا قد اختفت وحل مكانها سور من القرميد

الذي أحاط بحديقتها وجعل معالمها الصغيرة واضحة. وأدركت أنه عندما يكتمل بناء السور سيحجب عنها كلياً المنظر الطبيعي ويعزلها عن الأملاك الرئيسية. اذاً هذا ما كانت تسمعه خلال نومها ـ أصوات عمال البناء وقرقعة أدواتهم ـ ولكن ماذا يحدث هنا بحق السماء؟

«لقد كلفت ببناء هذا السور وهذا ماأفعله.» أجابها أحد العمال الذي كان يرتدي قميصاً ملوناً وبنطال أوفرول أزرق، عندما سألتهم عن غايتهم. وضعت جيسي عليها بسرعة بنطال جينز وبلوزة رياضية ونزلت إلى الحديقة لمواجهة من اعتبرتهم متطفلين على حديقتها.

«لابد وأن هناك خطأ ما. لايمكن لعائلة غراتون أن تفعل ذلك معي.»

لقد اشترت هذا المنزل من رئيسها السابق في العمل، اللورد مارك غراتون، الذي كان وزوجته سوزان من أعز أصدقائها. وقد باعا لها المنزل بعد أن قررت جو الزواج والتخلص من المنزل الذي كانت تقيم فيه مع جيسي. لقد عرفت جيسي عائلة غراتون منذ زمن طويل وكانت تعمل عندهم عندما قابلت أدريان.

كان اللورد مارك رجلاً من الطراز القديم يعامل موظفيه كأفراد عائلته. ووقف إشبيناً لجيسي عندما تزوجت أدريان. وبعد الزواج عامل اللورد مارك وزوجته سوزان، اللذان لم يرزقا بأولاد، الزوجين الشابين كأنهما ولدان لهما. وقد حزنا كثيراً عندما انفصلا ولم يقفا بجانب أحد منهما ضد الآخر بل كانا يمدان يد الصداقة لهما من دون تحيز. الآن من الصعب التصديق أن بناء هذا السور يتم بأمر منهما.

لم تصل إلى نتيجة من احتجاجها مع العمال، لذا قررت أن تذهب إلى منزل آل غراتون لتعرف ما الذي يحدث. وبسبب السور الذي سد الطريق الذي عليها أن تأخذه، سارت جيسي مسافة طويلة بمحاذاة طريق السيارات الرئيسي لكي تصل إلى منزل آل غراتون.

وجدت المكان يعج بالحركة. والسقالات ارتفعت ملتصقة بواجهة البيت ذي الطراز الجورجي القديم. واسلاك الكهرباء الصفراء والسوداء المؤقتة مدلاة من أطراف سطح القرميد وصوت المحركات تطن كصوت ملايين من الحشرات مجتمعة. وجيش من العمال تجاهلوها عندما مرت فيما بينهم.

متى قررت سوزان غراتون أن تجدد منزلها؟ كانت تتكلم كثيراً عن ذلك ولكنها لم تجد قط الوقت الكافي للقيام بذلك بسبب انشغالها بالأعمال الخيرية. شيء ما قد تغير خلال غياب جيسي.

وجدت جيسي عندما وصلت إلى مدخل المنزل أن الجرس الكهربائي قد اقتلع والباب المزدوج والمصنوع من خشب الأرز مفتوحاً على مصراعيه. تقدمت خطوة إلى الداخل ونادت مستفهمة: «سوزان؟ مارك؟»

لم تحظ جيسي بأي جواب ولكن سمعت رجالاً يتكلمون في غرفة المكتبة. وقفت عند الباب وقالت: «عن إذنكم.»

ثم رأت رجلين منكبين على طاولة السنديان الكبيرة التي اعتادت هي وسوزان الجلوس حولها والتحدث عن الأدب واللوحات الفنية. نظر أحد الرجلين في اتجاهها وقال: «لقد آن الأوان كي يرسلوا احداً.» ثم لكز الرجل الآخر

بذراعه وأكمل: «لقد ارسلوا لنا أخيراً شخصاً من أجل تركيب البورسلان.»

«أنا لست من...» ولكن صوت جيسي ارتجف وتوقفت عن الكلام عندما استدار الرجل الآخر نحوها. هذه المرة لا مجال لأي خطأ.

قال الرجل في ذهول. «جيسيكا؟ جيسي؟»

«أنت الذي كان في السيارة، أليس كذلك؟ قل لي إني لا أحلم.»

«لا، إنك لا تحلمين. إلا إذا كان كلانا يحلم. ولكن... بحق السماء ماذا تفعلين هنا؟»

«أنا أعيش هنا... لقد أعتبروك ميتاً.»

رفع حاجبيه قليلاً وقال: «أريد أن أؤكد لك بأني لم أتجشم كل هذه المتاعب في شراء هذه الأملاك وتأهيلها لأضايقك.»

أرخت قبضتها عن الباب. «لاداع للمزاح. كل هذه السنوات اعتقدتك ميتاً. أشعر الآن وكأني أرى شبحاً.»

نظر أدريان إلى وجهها الممتقع ويديها المرتجفتين وقال: «أنت تتكلمين بجدية. أليس كذلك؟ يظهر أنك لم تقرئي الصحف التي نشرت خبر عودتي منذ مدة طويلة.»

«لقد كنت في رحلة عمل إلى الخارج في الأسابيع الثلاثة الفائتة.» قالت جيسي وهي تغطي وجهها بيديها وتسند نفسها إلى الحائط. إذاً أدريان كان الرجل الذي رأته يهم بركوب سيارة الجاغوار. بطريقة ما استطاع البقاء والعودة إلى هنا. والقدر قد جمعهما ثانية. شعرت في الوقت نفسه بالحاجة إلى البكاء والاطمئنان

ولكنها كانت غير مستعدة للبكاء أو الاسترخاء. اقترب أدريان منها سائلاً: «هل أنت بخير؟ أتريدين بعض الماء؟»

أنزلت يديها عن وجهها ونظرت إلى عينيه. اللون البني الفاتح لا يزال كما هو ولكن الزمن خط على وجهه بعض التجاعيد، وعلى بشرته التي لوحتها الشمس رأت لطخات داكنة تحت عينيه. قالت وهي تتنفس بصعوبة: «من الصعب علي أن أصدق أنك حي ترزق.»

«إنها قصة طويلة وأنا متأكد أنك لا تريدين سماعها الآن.» أجابها بشيء من السخرية: «ولكني آسف لإخافتك فقد كنت أظن أن الجميع بمن فيهم أنت قد عرفوا بعودتي.»

«من الممكن أن الجميع عرفوا بعودتك، ما عداي.» قالت جيسي وهي تستجمع شجاعتها وتتمالك أعصابها ثم شربت كأس الماء الذي أحضره لها وأحست برجفة تعتريها: «الذي لا أفهمه هو، ماذا تفعل أنت هنا؟ وأين مارك وسوزان؟»

ألقى عليها أدريان نظرة تعجب وقال: «أنت لا تعلمين إذاً، أليس كذلك؟ لقد باع آل غراتون هذا المكان لي وانتقلوا إلى دارة صغيرة في الطرف الأخر من ادلايد.»

«كيف باستطاعتهم القيام بكل هذا العمل في ثلاثة أسابيع؟»

«بتعاونهم مع المحامين يستطيعون إنجاز العمل في ثلاثة أيام فقط.» قال أدريان وهو يدخل أصابعه كالمشط في شعره الذهبي اللون: «يا الهي، لا تقولي لي أنك التي تملكين بيت الحراس؟»

أجابته: «نعم.» بهزة من رأسها وأضافت: «ألم تخبرك سوزان؟ كلا، لم تفعل بالطبع. لأنها تعلم أنك لن تشتري هذه

الأملاك عندما تكتشف أني أملك بيت الحراس وساكون جارتك القريبة.»

«هذه هي سوزان، دائماً تريد أن تجمع رأسين بالحلال. كانت عائلة غراتون أول من اتصلت بهم فور وصولي. لم تأتِ سوزان على ذكرك ورأيت أن تصرفها غريب.»

«الآن عرفت السبب.»

«نعم، من الواضح أن سوزان لم تعرف أنها تلعب بالنار لأني لم أر حاجة لأخبرها عن انفصالنا أكثر مما يجب.»

«هذا حسن منك. ولكن ألا يظهرك ذلك أمامهم بمظهر الحمل الوديع؟»

شعرت جيسي بالضيق. فلم يكد يمضي على لقائهما أكثر من خمس دقائق حتى بدأت المناكدة بينهما. قالت جيسي من دون انفعال: «لا احتاج للظهور بمظهر الحمل الوديع.» والقت بنظرة اعتذار باتجاه الرجل الآخر الذي كان يراقبهما بصمت وباستغراب ويداعب اطراف الخرائط الهندسية بيده. «أنا آسفة لمقاطعتي لكما في العمل.» قالت جيسي للرجل الآخر.

«هل أردت رؤية سوزان ومارك؟ باستطاعتي اعطاءك عنوانهما الجديد.»

تذكرت جيسي السبب من مجيئها فقالت: «شكراً لك ولكن اتيت إلى هنا لسبب آخر. لقد جئت لأحتج على بناء سور حول حديقتي.»

«لقد كنت أظن أني أبني السور حول حديقتي.» أجاب أدريان بصوت خافت.

«النتيجة واحدة. يجب أن تتوقف عن بناء هذا السور.»

«لماذا؟ لأنك تطلبين ذلك.» أجابها بسخرية.

«لأن ذلك هو الصواب، ولكن يظهر أن قاموسك لا يحوي كلمة الصواب.»

«لا شيء تغير.» تدخل أدريان في الحديث: «الشيء الصواب، يعني في قاموس جيسيكا الشيء الذي تريده، أليس كذلك؟»

رفعت جيسي يديها أمامها وكأنها تصد عنها مهاجماً وقالت: «أدريان، من فضلك. قبل خمس دقائق فقط كنت أظنك ميتاً فلا تبدأ بفتح الجروح القديمة.»

ظهر التعب فجأة على وجه أدريان وكان هذه المواجهة قد سلبته كل حيوية مثلما فعلت بها. وقال: «أنت على حق إنها قلة ذوق مني أن اجيبك بهذا الشكل. لماذا لا نتناول الطعام معاً ونبحث في هذا الموضوع في هدوء؟»

وعلى الرغم من إصابتها بالهلع لفكرة الإنفراد معه ردت جيسي: «إن لباسي غير مناسب للخروج.»

وقعت نظرته المتفحصة على بنطال الجينز الذي يظهر ساقيها والبلوزة التي تظهر بوضوح أنها لا تلبس تحتها حمالة صدر، وقال: «أنت إمرأة جميلة ومهما كنت ترتدين فإنك تظهرين على مايرام.» وصوته الخشن تحول إلى صوت خافت.

«لقد صبغت أهدابي.» لون الشعر على جفنها كان باهتاً بالنسبة إلى لون عينيها الأزرق المحاط بدائرة رمادية حول البؤبؤ. لون الصبغة أضاف شيئاً من اللمعان على عينيها وجعلتهما تبدوان وكأنهما أوسع.

«ماذا قلت بشأن الغداء؟» سأل أدريان.

استدارت جيسي نحو الرجل الآخر وسألت إذا

كان خروجها مع أدريان سيعطله عن العمل.

«داڤيد لديه موعد على الغداء. أليس كذلك؟» قال أدريان وأضاف: «باستطاعتنا أن ننهي العمل غداً.»

«في هذه الحالة سأعود إلى البيت وأغير ملابسي. والاقيك أمام المنزل بعد خمس عشرة دقيقة.»

نظر داڤيد، المهندس، إلى جيسي وقال ضاحكاً: «إني أشعر بالغيرة لأن لوسي تحتاج على الأقل خمساً وأربعين دقيقة كي تغير ملابسها.»

«وهكذا كانت جيسي، في السابق.» أضاف أدريان.

وعادت جيسي إلى بيتها مسرعة وهي تقول بنفسها إنه لمن الجنون تناول الغداء مع أدريان، حتى ولو كان هذا الغداء حسب تعبير المهندس داڤيد، للعمل فقط. كيف تستطيع أن تركز وتبحث معه في مشكلة السور وهي تعرف أن كل نظرة أو حركة منه ستذكرها في الماضي وفي حياتهما معاً؟ إنه من الصعب عليها قبول حقيقة أنه لا يزال حياً من دون إنكاء النار في علاقتهما السابقة.

استمرت جيسي، وهي ترتدي ملابسها، تؤكد لنفسها أن مواجهته هي أفضل طريقة لتبرهن أن كل شيء قد انتهى. ويجب عليها أن تبرهن ذلك لكي تستطيع احتمال حيرته لها.

حملت حقيبتها. واتجهت إلى الباب، ثم جمدت في مكانها. لقد فكرت بكل شيء ماعدا تفصيل صغير. ان تقيم بجوار أدريان، يعني أن أدريان سيقابل سام. وإذا عرف أن سام هو ابنه، فأدريان سيحارب بلا هوادة لأخذه منها. لديها خمس عشر دقيقة فقط للتفكير في الخروج من هذا المأزق. يجب أن تمنعه من اكتشاف حقيقة سام.

الفصل الثاني

أسرع أدريان إلى سيارة الجاغوار الواقفة أمام المنزل متقدماً جيسي ليفتح لها الباب. وكانت جيسي قد ارتدت سترة من حرير الجورجيت ذات ياقة عالية وتنورة منقطة ضيقة ولم تعرف إذا كان اختيارها مناسباً للمكان الذي يقصدانه.

«سيارة جميلة.» قالت جيسي قاطعة الصمت في ما بينهما.

أجابها أدريان بطريقة توحي بأنه لا يريد التحدث في هذا الشأن: «كنت في عجلة من أمري لاستئجار سيارة وهذه السيارة أول ما صادفته.» ولما علا صوت المحرك استطرد: «لقد كنت بعيداً لمدة طويلة ولم تعد لدي المعرفة الكافية بأماكن الخروج. أي مطعم تفضلين لتناول الغداء؟»

«مطعم بيكر فول القريب من طريق نورتون سامت. من المفترض أن يكون حسناً. لقد أفتتح منذ...» وكادت أن تقول منذ أن مت.

قال أدريان بتهكم وقد لاحظ زلة لسانها: «باستطاعتك قول هذه الكلمة فأنا لم أمت ولم أتقمص.»

شبكت جيسي يديها مع بعضهما وقالت: «لا زلت أحاول الاقتناع بأنك حي ترزق وأني هنا، بجانبك. أنا أعتقد بأني ما زلت أعاني من تعب السفر بالطائرة وسأستيقظ وأجد نفسي أني كنت أحلم بأنك حي.»

«لا تستطيعين الإستيقاظ وتجدين نفسك أنك تحلمين.»

أجاب أدريان: «أؤكد لك أني حي وحقيقي. هيا المسيني.»

ففضلت عدم التعرض لسخريته، وضعت جيسي يدها على ذراعه وراحت تتلمسها من الأعلى حتى وصلت إلى أصابعه الطويلة القابضة على مقود السيارة.

نظر أدريان إليها وقال: «هل تصدقين الآن بأني حي وحقيقي؟»

حولت جيسي نظرها عنه وفكرت: «الحقيقة، أني لا أشك أبداً بذلك.» ولكن لماذا هذه الحاجة الملحة للمسه؟ مرة اخرى، تشعر بأنها تعيش على حافة الخطر كالفراشة التي ترقص حول النار. لماذا لم أتحدث مع أدريان بشأن الجدار في منزل غراتون؟ لقد ارتكبت غلطة بقبول دعوته إلى الغداء.

أفاقت جيسي من تأملاتها ولاحظت أن أدريان لا يقود سيارته على طريق نورتون سامت وسألته: «أين نحن؟ هذه ليست الطريق الصحيحة.»

أوقف أدريان السيارة جانباً، رفع يديه عن المقود تاركاً آثار بصمات أصابعه وقال: «تباً! لقد خطر ببالي أنها ليست الطريق الصحيحة منذ نحو الميل تقريباً. من السخرية أن أستطيع العثور على حيوان البوما في أدغال افريقيا، ولا أستطيع العثور على مطعم في تلال ادلايد.»

نظرت جيسي إليه بفضول. يبدو أن أدريان يتظاهر بعدم معرفة الطريق ويبدو أيضاً انه قد ندم على دعوتها إلى الغداء مثلما هي ندمت. فقالت: «دعنا نرجع، أنا لست جائعة بهذا القدر.»

«لا حاجة لذلك، أنظري إلى جانب الطريق. اليس ذلك المكان على التلة هو مطعم بيكر فول؟»

«نعم، إنه المطعم الذي نقصده.» أجابت جيسي وهي تشعر

بهبوط في قلبها وتنظر إلى المطعم المسور ببساتين التين الكبيرة، الواقع على خليج مورتون والذي كان اسطبلاً في ما مضى.

أوقف أدريان سيارته في ظل شجرة كبيرة ودلفا داخل المطعم. برودة المكان، النور الخافت وجدران الحجر السميك بالإضافة إلى موقد النار المفتوح، وأعمدة السقف المرتفع الخشبية وأغطية الطاولات الدانتيل أعطت المكان جواً خاصاً وحميماً.

مشى أدريان إلى قرب موقد النار المطفأ، بسبب فصل الصيف، وقرأ العبارة المحفورة على واجهته الرخامية. «آه! من زقٍ مليء بحرّ الجنوب. جون كيتس.» ثم قال: «الآن عرفت لماذا أطلقوا على هذا المكان إسم الزق المليء. إن هذا الاسم هو من أشعار جون كيتس.»

كان أدريان جيسي، بسبب تبكيرهما بالمجيء، الزبونين الوحيدين في المطعم وقد وجههما النادل إلى طاولة بجانب أحد النوافذ المطلة على المروج الخضراء حيث الطيور التي تظهر بالوان الجواهر تحط عليها باحثة عن الطعام.

تأمل أدريان المنظر الجميل من النافذه وقال، «كلما رأيت المروج الخضراء أشعر بالإرتياح. إني أحتاج لبعض الوقت لأتعود ثانية على هذه المنطقة بعد غيابي الطويل.»

«بعد افريقيا؟»

هز أدريان برأسه موافقاً.

«أين كنت كل هذا الوقت؟»

سألت جيسي بعفوية ولم تعن بسؤالها انتقاده ولكن كان لصوتها نبرة من يريد امتحان الآخر. وعندما لاحظت جيسي أن أدريان قد زم شفتيه دليلاً على الإستياء سارعت

إلى المقول: «أريدك أن تعرف أني لا أقصد انتقادك.»

«ولماذا تهتمين؟ كلا، إنسي هذا السؤال. إن سؤالك لي عادي. لقد ذهبت إلى افريقيا الوسطى وهدفي السير على خطى رحلات ليفنغستون التي بدأها من زامبيزي إلى مهاوي كامبومبو. لم أكن حكيماً عندما قمت بهذه الرحلة وحيداً فقد تحطمت سيارتي اللاند روفر في حفرة الدونجا - الخطرة.» وعندما لاحظ نظراتها السائلة أضاف قائلاً: «لم أصب إصابة خطرة في الحادثة وقد أنقذني بعض أفراد قبائل لوفاليه من الحفرة. كنت قد أصبت بارتجاج في المخ فأعتنوا بي جيداً. وعندما شفيت قررت أن أبقى عندهم بعض الوقت كي أرد جميلهم.»

«أعتقد أن ست سنوات هي أكثر بكثير من بعض الوقت.»

أكمل أدريان حديثه من دون أن يكترث لسؤال جيسي: «لقد اهتممت بأشياء كثيرة. تعليم البالغين اللغة الإنكليزية، مساعدة الأولاد في وظائفهم المدرسية، وتدريب رجال القبيلة على وسائل الزراعة الحديثة. التربة عندهم تشبه التربة عندنا - نصف سنة رمال قاحلة ونصف سنة مستنقع خصب.»

التفكير بأن أدريان كان يعيش حياة هادئة، بينما هي كانت تحترق لسماع الأخبار عنه أثار غضبها. وسألت: «ألم يكن باستطاعتك إعلام أحد بأنك على ما يرام؟ هل من العدل أن يظن الجميع بأنك ميت؟»

انزعج أدريان من قسوة هجومها فلمعت عيناه وقال: «أنت التي تقصدين بالجميع وأنا أعرف شعورك في هذا الشأن. كان انفصالنا واضحاً وإذا كنت قلقة على قطعة من الورق...»

أدركت جيسي ما يرمي إليه أدريان فقالت: «لم يكن الطلاق

من مرامي. لقد كنا متزوجين لسنتين عندما رحلت. بحق السماء! لا أحد يستطيع التوقف عن الحب بهذه السهولة.»

رفع أدريان حاجبيه وقال: «لكنك استطعت أن تفعلي.»

غطت الأهداب عيني جيسي عندما مالت برأسها إلى الأسفل وقالت: «لقد شرحت لك أسبابي.»

«نعم، شرحت لي أسبابك. لقد كنت تريدين مني أن أكون كلبك الصغير المطيع الذي يتمسح على أقدام سيدته ولما لم أرض بذلك...»

تنهدت جيسي بصوت عالٍ وقالت في نفسها: يبدو لي أن الحديث الذي قررنا أن يكون هادئاً بمجيئنا إلى هنا لن يكون هادئاً أبداً! شكرت جيسي ربها عندما قطعت نادلة المطعم مجرى الحديث بينهما بجلبها لائحة الطعام. قراءة اللائحة ستتيح الفرصة لكي ترد أعصابهما ويتمالكان نفسيهما. عند انتهائها من قراءة لائحة الطعام، قالت جيسي: «المحار الذي يأتي من صخور خليج جيد وأريد نوع الكابريس الأبيض.»

مناولاً النادلة لائحة الطعام طلب أدريان: «أريد المحار مع السلطعون والمايونيز. هل لديكم شراب؟»

«لا أريد شراباً.» قالت جيسي وهي تفكر بأنها تجد صعوبة بالغة في السيطرة على أعصابها من دون الشراب فكيف سيكون الحال إذا شربت؟

طلب أدريان زجاجتين من الماء الغازي بيريه وجلس منتصباً على مقعده ينظر من النافذة إلى المروج الخضراء الممتدة أمامه ثم استدار نحوها. «لماذا عدت؟» قالت جيسي.

لم يجب أدريان على سؤالها فوراً، وبعد صمت طويل

قال: «التقيت هناك بفريق عمل تلفزيوني كان يصور فيلماً وثائقياً. وأقنعوني بالرجوع إلى الحياة المتمدنة. كما كنت بحاجة لإنهاء بعض الأعمال هنا.»

وقبل أن يتسنى لها أن تسأله ما يعني بهذه الجملة الأخيرة استطرد قائلاً: «لقد أخبرتكِ بما حدث لي خلال الست سنوات الماضية. والآن جاء دوري في السؤال. ماذا فعلتِ خلال هذه المدة؟»

شرد ذهنها نحو سام ابنها ونظرت عبر النافذه إلى البعيد ثم قالت: «ما فعلت ليس بالكثير.»

«لقد أخبرتني أنك كنت خارج البلاد عندما عدت. أين؟ وماذا كنت تفعلين؟»

علت محياها ومضة من الكبرياء. إنها فخورة بما حققته منذ انفصالهما ولكن كلما عرف أدريان أكثر عما فعلته في السنوات الماضية كلما اقترب من الحقيقة عن سام. وأجابت بصوت رقيق: «لقد عدت للعمل عند آل غراتون.»

«في المبيعات؟»

«مساعدة مدير دائرة أولاً ثم المسؤولة عن الاستشارات في قسم الديكور.» أجابت جيسي. وأمتعها أن تجد لمحة من الاحترام لها في عينيه. وفكرت، لنرى الآن إذا كان سيتهمني بقلة الطموح في الحياة؟

«بالطبع إن الشركة لم يعد يملكها آل غراتون.» استطردت جيسي وهي لاتعرف إذا كان أدريان يعرف ذلك أم لا.

دهشت جيسي عندما هز أدريان رأسه دلالة على أنه يعرف وقال: «لقد أخبرني اللورد مارك أنه تقاعد منذ سنتين ورفض أن يكون عضواً في مجلس إدارة الشركة التي كانت ملك عائلته.»

«اللورد مارك كان محقاً في رفضه عضوية مجلس الإدارة فالشركة بعد بيعها تغيرت مفاهيمها، فقد فقدت ميزتها وهي التعامل مع الزبائن على أساس شخصي وأصبحت موجهة نحو الربح التجاري البحت.»

اخترقت نظرته الفضولية أعماقها وهو يقول: «ومع ذلك بقيتِ تعملين مع الشركة.»

«لم يكن ذلك بسبب المال. أنا مرتبطة معها بعقد إلى جانب أني بنيت لنفسي سمعة كبيرة كمهندسة ديكور ولك الشكر يا أدريان فقد كنت أول زبون من المشاهير عندي.»

اعترض أدريان بهزة من رأسه وقال: «إن انجازاتك هي ملكك.»

«من اللطف أن تقول هذا. كنت خائفة من أن تظن بأني استغللت اسمك في طريقي إلى النجاح.»

«إنكِ تدهشينني! لا تزالين تحملين اسمي!»

«أنا لا أشعر بخجل من كوني متزوجة منك ياأدريان.» أجابت بعفوية وبصوت عاطفي أدهشها. فقد كانت تظن أنها احتفظت باسم زوجها من أجل سام. هل كان عقلها الباطني يبرمج عواطفها من دون أن تدري؟

استرخت جيسي قليلاً عندما قدم الطعام على المائدة وأخذا بالتهامه.

شعرت جيسي بالإعياء من جراء تركيز نظرها على كل حركة كان يقوم بها أدريان. الطريقة التي عصر بها الليمون فوق المحار. التقط قطع السمك بالشوكة بطريقة هجومية، وكأنه يصطاد الطعام في الأدغال.

«لا بد وأنك امرأة عمل ناجحة. أليس كذلك؟» هذه الجملة

كانت التعليق الوحيد لأدريان على ما قالته جيسي قبل أن يغير موضوع الحديث بقوله: «متى اشتريت بيت الحراس؟»

«منذ سنة.» أجابت جيسي وأحست بتوتر أعصابها لأن الحديث وصل إلى نقطة الخلاف بينهما. ثم أكملت: «سوزان ومارك كانا يحتفظان بهذا البيت لابنة عرابهما التي غيرت رأيها بالسكن في بيت الحراس واختارت أن تعيش قرب الشاطىء. سررت كثيراً عندما عرضا علي شراء المنزل بسعر أستطيع دفعه.»

حرك أدريان الطعام في صحنه من غير أن يلتقط شيئاً وقال: «كانا يشعران بالوحدة والإنعزال بعد بيع الشركة فقد قدمت لهما معروفاً بقبولك مجاورتهما.»

«لم يذر بخلدي هذا الشيء. كنت ممتنة لهما لأعطائي الفرصة لكي أعيش في مكان خاص بي.»

أجاب أدريان بصوت كأنه الصدى خالٍ من الشعور: «لقد كانت خطوة حكيمة. وعلى ما أظن لقد كنتِ تعيشين بالإيجار قبل شرائك المنزل؟»

أحست جيسي أن الحديث اتخذ منعطفاً خطراً. فإذا أجابت باقتضاب من الممكن أن تثير شكوكه. وإذا سردت الكثير من الممكن أن تجعل بقاء سام معها في المستقبل معرضاً للإنتهاء. ولكنها تشجعت وقالت: «لم يكن شيئاً أن أعيش هكذا. كان بيت جو مريحاً رغماً عن صغره.»

وكأن جيسي بقولها هذا قد أعطت أدريان إشارة ينتظرها. فقد قطب وجهه وقال: «على ما أظن جو هو عشيقك. أليس كذلك؟»

احمرت وجنتا جيسي وارتفع ضغطها عندما لاحظت أن

أدريان قد أساء الفهم واعتقد أن اسم جو هو اسم رجل. وكادت أن تنفي ذلك ولكن شيئاً بداخلها منعها عن ذلك. ربما سوء الفهم هذا قد وفر لها فرصة إيجاد مخرج لورطتها معه. وأجابت على سؤاله: «ست سنوات هي مدة طويلة للعيش من دون رجل.»

«يبدو من الطريقة التي تتكلمين بها، أنك لم تضيعي هذه السنوات سدى.» أجابها أدريان وشعرت جيسي بغضبه وكأن شعاعاً حرارياً صادراً عن موقد نار زحف إليها من فوق الطاولة التي تفصلهما. وبالرغم من احساسها العميق بهذا الغضب تمالكت نفسها عن نفي ظنونه. في لحظة كهذه، لو قالت إن جو إمرأة ـ متزوجة وليس رجلاً ـ لما صدقها.

حاولت جيسي تغيير مجرى الحديث فقالت بتوتر: «على ما أظن لقد جئنا لنتكلم عن مشكلة الجدار الذي بنيته حول بيتي ويعزلني عن بقية الأملاك.»

انتظر أدريان انتهاء النادل من تنظيف المائدة من بقايا الطعام قبل أن يرد عليها قائلاً: «لا يوجد ما نتحدث عنه طويلاً في هذا الشأن.»

اعترضت جيسي قائلة: «لابد وأنك تعرف مساحة قطعة الأرض حول بيت الحراس. ولولا المنظر المطل على حديقة غراتون لأصبح العيش فيه كالعيش في زنزانة من الإسمنت المسلح.»

«كان عليك التفكير بذلك قبل شراء البيت.»

شعرت جيسي بالإحباط وقالت: «لم يكن هناك من مشكلة عندما اشتريته. كيف كان لي أن أعرف أن آل غراتون سيبيعون الأملاك ويرحلون بهذه السرعة، من دون إعطاء علم أو خبر؟ ولا أدري لماذا تصرفوا بهذا الشكل.»

وضع أدريان الكثير من السكر والحليب في قهوته وكأنه يعوض عن حرمانه من تلك المادتين لمدة طويلة. وقال وهو يحرك الرغوة الكثيفة المتجمعة في أعلى القهوة: «يبدو لي أن سوزان قد خططت لكي نلتقي ونتصالح.»

لفتت رغوة القهوة الكثيفة نظر جيسي لثوانٍ ثم نظرت إلى أدريان وقالت: «ولو، كان يجب أن تخبرني أنها ستبيع الأملاك.»

«لو لم أخبرهما بحاجتي إلى مكان هادىء لأعمل به، لربما كانا رفضا بيعي المكان. وبمعرفتي بالإثنين، أظن أن مارك قد عارض عدم اخبارك بالبيع ولكن سوزان استطاعت إقناعه بأن قصة حبنا يجب أن يكون لها نهاية سعيدة.»

ولكن ليس لهذه القصة نهاية سعيدة. لم تلق جيسي باللوم على سوزان. اعتقدت سوزان عن حسن نية، واعتقادها بأنها تفعل الشيء الصواب. اللوم يقع على جيسي لأنها أوحت إليهما بأنها وأدريان قد افترقا وهما صديقان وأن المصالحة ممكنة. واستطردت تقول بإصرار: «مع ذلك لا أستطيع أن أسمح لك ببناء هذا الجدار.»

اعتلت وجه أدريان ابتسامة تهكم ولمعت عيناه وقال: «يبدو لي أنك لم تستوعبي بعد، أليس كذلك؟ بأنك لا تستطيعين التحكم فيما أريد عمله ولكنك لا تتوقفي عن المحاولة.»

«لا تعتبر ذلك بأنه صراع قوى.» اعترضت جيسي: «ولا هو معركة بيني وبينك. ولكن بناء الجدار سيهدم طريقة حياتنا كلها.»

وضع أدريان يده على جبهته وكأنه يحاول أن يتذكر شيئاً ما، وظهر اهتمام مفاجيء في تعابير وجهه. «أتقولين

طريقة حياتنا؟ لقد ذكرت سوزان أن ساكنة منزل الحراس عندها ولد. وهو الشيء الذي منعني من الشك في أنك أنت هي الساكنة. يبدو لي أنك وجو لن تضيعا أي وقت.»

«لا داعي لأن تكون فظاً هكذا.» أجابت جيسي وقد لسعت بلهجة كلامه القاسية.

«لِمَ لا؟ لقد رفضت رفضاً قاطعاً في أن تحملي بولد مني عندما كنا معاً. ولكنك تخلصت بسرعة من حبوب منع الحمل فور أن أصبحت بعيداً عنك.»

«لم يكن رفضي كما تتصور، كنت أخاف أن أصبح أرملة بعد أن تكون قد رميت نفسك في المهالك.»

من السخرية أن جيسي توقفت عن تناول حبوب منع الحمل عندما ظنت أن أدريان قد رضخ لإرادتها وقرر الاستقرار في المنزل والتوقف عن الرحلات. ولكن عندما أخبرها بقراره الرحيل ثانية كان قد فات الأوان وأصبحت حاملاً منه قبل أن يفترقا ويذهب هو إلى مجاهل غينيا الجديدة.

«هل يعيش جو معك في المنزل؟» سأل أدريان بصوت خافت ولكن بنبرة توحي بخطورة الموقف.

«لا، إنه لا يعيش في المنزل. فقط أنا وابني سام.»

سأل أدريان مستوضحاً: «هل كانت علاقتك معه عابرة؟ شيء لتمضية الوقت والتسلي؟»

ما الفرق إذا كانت العلاقة عابرة أم لا؟ أجابت جيسي: «لا، لم تكن العلاقة عابرة، لقد أحببت والد سام.» وقالت في نفسها، إني لا أكذب لقد أحببت أدريان وهو والد سام.

اسودت عينا أدريان وكأن الشعلة في داخلهما قد انطفأت وبدا وكأن شيئاً ما بداخله قد مات وقال بصوت يشوبه

الحزن: «لم يكن قصدي أن أحقق معك. لابد وأن تربية الول
بمفردك كان صعباً.»

«قد يكون صعباً في بعض الأحيان.» وافقت جيسي مع
ولكنها بقيت حذرة تجاه هذا التصعيد العدائي ولكنه
أضافت: «سام هو مصدر سعادتي وذكاؤه مصدر اعتزازي.

أطلق أدريان صفيراً ناعماً وقال: «لا بد وأن تربية ول
ذكي هو تحدٍ كبير لك.»

«لقد تغيرت.» قال أدريان وكأنه غارق في تفكير
عميق: « يبدو لي أنك أقوى مما كنت فيما مضى.»

«التعبير المناسب هو أنضج، أليس هذا ما تعني
الأمومة تسرع بالنضوج.» أجابت جيسي بلؤم.

استطرد أدريان وهو لا يزال غارقاً في التفكير: «ربم
كان مفتاح النضوج هذا والد سام. الله يعلم أني حاولت
كثيراً لأكون هذا المفتاح ولكني فشلت.»

حركت جيسي قهوتها وشربت منها قليلاً ثم وضعت
الفنجان جانباً. وقالت: «لم يفشل أحد. لا أنت فشلت ولا أنا.
ربما الخطأ من البداية كان زواجنا. وإذا كان هذا صحيحاً
فاللوم يقع عليّ بالقدر نفسه الذي يقع عليك.»

لاحظت جيسي توتر أعصاب أدريان وهي ترى انقباض
يديه قبل أن تتلاقى نظراتهما. قال أدريان: «مهما كانت
النتيجة لم أندم على الزواج منك يا جيسيكا. لقد كان
زواجنا رائعاً، حتى ولو رفضت الإعتراف بذلك.»

أرخت جيسي بنظرها عنه وكأنها تعترف بأن زواجهما
كان ممتعاً. وعليها الاعتراف أيضاً بأن أدريان كان
الرجل الوحيد في حياتها. صديقتها جو، كانت على حق

بقولها إنها ما زالت تقارن كل رجل تقابله بأدريان كول.

اعترى وجه جيسي الجمود عندما رجعت إلى التحدث
قائلة: «لقد تناقشنا كثيراً في هذا الموضوع منذ ست
سنوات. ولم نصل إلى نتيجة.»

«ولا أعتقد أن شيئاً قد تغير.» قال أدريان وهو ينظر إلى
ساعته: «يجب أن أعود فأنا مرتبط بموعد للعمل.»

لقد أقفل أدريان الحديث وهي تستحق ذلك لأنها أوضحت
له انها قالت كل شيء عندها. ولكنها لا تريد لهذا اللقاء أن
ينتهي بهذه السرعة فتداركت قائلة: «لقد نكرت أنك اشتريت
أملاك آل غراتون بسبب حاجتك للهدوء، فماذا تفعل الآن؟»

أجابها بابتسامة سخرية: «إني أؤلف كتاباً عن افريقيا
الوسطى وأقوم بوضع الترتيبات لانتاج مسلسل مغامرات
تلفزيوني لحساب المنتج الذي أقنعني بالعودة إلى هنا.»

«سام سيحب ذلك. سام...» واقفلت جيسي فمها وهي تكاد
أن تقول ـ ورث كل عاداتك. ولكنها عادت وأكملت عوضاً
عن ذلك: «يحب قراءة كتب الرحلات والمغامرات.»

«عادة يجب تشجيعها.» قال أدريان موافقاً، ولكنها
لاحظت أنه فقد الاهتمام بالحديث ثانية فقد أشار باصبعه
للنادل كي يأتي بفاتورة الطعام الذي اسرع إليه على الفور.
بسبب شهرته، كان أدريان يحصل على خدمة ممتازة في كل
الأماكن العامة ويتجاهل الناس جيسي عندما تكون معه.

نظرت جيسي إلى ساعتها عندما غادرا المطعم وقالت: «يا
إلهي، يجب أن أسرع. جو سيعيد سام للبيت بعد نصف ساعة.»

رد أدريان عليها وكان الحرارة داخل السيارة قد هبطت
عدة درجات: «هل تدعين سام يزور جو ويخرج معه؟»

«سام يبقى عند جو عندما أقوم برحلة عمل إلى الخارج.» أجابته محتفظة بالحقيقة المبطنة.

«هذا شيء نبيل منك.»

لم ترد جيسي أن يظن السوء بجو، فهي الصديقة التي ساندتها في الأيام العصيبة التي تلت رحيله فأجابت «سام يحب جو ويحب أن يلعب مع ابنته نيل وقد افتقد الولدان بعضهما كثيراً عندما انتقلت إلى بيت الحراس.»

من دون أن يحرك أدريان نظره عن الطريق الملتوية الممتدة أمامه، وظلال الأشجار المتدلية أغصانها فوق الطريق تتلاعب على وجهه وتجعله يظهر وكأنه تمثال يوناني. سأل بهدوء: «كم يبلغ عمر سام، يا جيسيكا؟»

أجابت جيسي لا شعورياً من دون أن تنتبه إلى الفخ المبطن في السؤال: «ست سنوات، سيبلغ السابعة في آذار القادم.»

عند سماعه ذلك، فقد أدريان السيطرة على المقود وانحرفت السيارة لتسير في الإتجاه المغاير للسير وكاد أن يتسبب بحادثة اصطدام. ولكن سرعان ما سيطر على السيارة وبدأ يشتم بصوت خافت: «أيتها السافلة! أيتها الخائنة!» ضغط على مكابح السيارة بقوة وأوقف السيارة إلى جانب الطريق برعونة ثم استدار نحوها والنار تتأجج في عينيه وقال: «لقد كنتِ تلعبين علي كل هذا الوقت ولم أنتبه إلى ذلك.»

التفت جيسي على نفسها خوفاً من غضبه وقالت: «بحق السماء عما تتكلم؟»

«لقد أقنعتني بأن انفصالك عني كان سببه تصرفاتي ومغامراتي ولكن يظهر أن رحلاتي كانت الحجة لكي تضعي اللوم عليّ.»

وضعت جيسي أصابعها داخل خصلات شعرها وكانت

تجهد محاولة أن تعرف ماذا يعني أدريان وسألت: «عن أي لوم أنت تتكلم؟ لقد انفصلت عنك لأنني لم أعد أتحمل القلق في أن تقع لك حادثة قد تقتل بها. لماذا يجب أن أشعر بالذنب لهذا؟»

«لأنني عندما كنت أصارع تيارات نهر جاردين الخطرة، كنت أنتِ تقومين بمغامراتك العاطفية الخاصة ـ مع جو. أليس كذلك؟»

أطلقت جيسي صرخة عندما فهمت ما يعني أدريان: «يا إلهي!» ووضعت يدها على فمها.

«سأعرف الحقيقة يا جيسي.» استطرد أدريان مهاجماً بلا هوادة: «كنت على علاقة بهذا الرجل وحاملاً منه قبل انفصالنا. ويبدو أن ذهابي كان محط سرورٍ لك. فقد خلي الجو لكما.»

الإستنتاج الذي وصل إليه أدريان في أنها قد خانته مع رجل آخر قبل انفصالهما كاد أن يصيبها بانهيار عصبي. والوسيلة الوحيدة لنفي هذا الأمر هو أن تخبره أن سام هو ابنه وليس ابن رجل آخر. غير أنها لا تستطيع أن تقول ذلك. ولكنها قالت بصوت كأنه صادر عن الأموات: «أرجو أن تأخذني إلى المنزل.»

«بالتأكيد، سآخذك إلى المنزل حيث ينتظرك جو، ولكن ليس قبل أن أجرعه من السم الذي جرعتِه أنا.»

«لقد كنت مخلصة لك دائماً.» قالت جيسي دفاعاً عن نفسها.

ظهرت السخرية على وجهه وأحست بنظراته تحرقها وقال: «دائماً مخلصة؟ ومن أين أتيت بسام؟»

«هل هذا ما تعلمته في الأدغال، أخذ النساء بالقوة؟» قالت جيسي بصوت مرتفع وهي تشعر بحراجة الموقف

وخطورته. إنها لا تريد، بحق السماء... أن يأخذها أدريا
بذراعيه ويعانقها. فهذا كافٍ لإضعاف إرادتها. وكل ما بق
من أجل حياة هانئة بعيدة عن القلق الذي يعنيها سيذه
أدراج الرياح. وستعود إلى الحياة السابقة نفسها معه. أ
تحبه بجنون من دون أمل في أن يغير أسلوب حياته. م
الفارق أنه الآن يكرهها لما يظن أنها فعلت.

وضع أدريان يده على مؤخر رقبتها من دون أن يضغ
لجذبها نحوه ووجدت جيسي نفسها تميل عليه بشكل ا
إرادي وظهر الشحوب على وجهها وافترقت شفتاها ع
بعض وهي تتوقع أن يلثمها.

«ليس ما سأفعله الآن هو شريعة الغاب. إنه شريع
أدريان.» أجابها. «وشريعتي تقول إن ما هو لي يبقى لي.»
ومال بوجهه عليها فكان عناق برقة. كما توقعت حصل
أدريان على ما يريد.

فجأة انهارت السنوات الست التي فصلتهما عن بعض في
لحظات. كم كانت جيسي متشوقة لتصبح عروساً مرة ثانية
وتذوق طعم العناق الأول من عريسها.

عناقه الغني بالعواطف كان يعد بليلة عرس ممتع
ولمجرد التفكير في ما هو قادم تجاوبت مع عناقه بكل
قلبها وروحها.

توقف أدريان فجأة وقال: «أنت ممثلة بارعة بالفعل.»

ابتعدت جيسي عن أدريان بانفعال والرعب يتملكها
وكأن أحلامها تحولت فجأة إلى كابوس مخيف وشتمت
قائلة: «يا ابن الزانية!»

أجاب أدريان من دون أن يبدو عليه أنه تأثر

بانفعالها: «لا بد وأن كلمة ابن الزانية مألوفة لديك.»

راودت جيسي الرغبة في البصق على وجه أدريان
وتهشيم باب السيارة حتى ولو بأظافرها لتخرج من
السيارة. كافحت لإخراج الكلمات من فمها وتشعر
بالإختناق لعدم جرأتها في قول ما يجب قوله. وهي لم
تسمح له بالتمتع برؤية دموعها تنهمر. «ماذا حدث لك؟ لقد
كنت رفيقاً لطيفاً فيما مضى. أما الآن...»

«الآن اكتشفت أني كنت أعيش في سراب معك.» قاطعها
أدريان، مبتعداً عنها إلى الجانب الآخر من السيارة. كان
يتنفس بصعوبة محاولاً السيطرة على أعصابه مرة أخرى.
واستطرد قائلاً: «في الأدغال نجحت بإقناع نفسي بأنك كنت
على حق - عندما عارضت ذهابي في مغامرات خطرة.
وشعرت بالذنب لعدم مراعاتي لشعورك وإصراري على
الذهاب إلى مجاهل هذه الأرض. ولكني اكتشفت أن هذا
التفكير كان لايغير شيئاً مما حدث. أليس كذلك؟» ولاحظ
أدريان أن جيسي مسحت فمها بقفا يدها تريد أن تمحو طعم
لثمه المر والحلو في الوقت نفسه من على شفتيها. فعلق
على ذلك قائلاً: «لا تدّعي انك لم تتمتعي بهذا العناق. لقد
شعرت بذلك في كل نبضة من نبضات شرايين جسدك.»

«حسناً، لقد تمتعت بها.» أجابت جيسي وهي تشعر
بالغضب يحل محل الشعور باليأس والإحباط. كيف يسمح
لنفسه أن يحاكمني في الوقت الذي كان يخاطر بحياته في
مغامرة تلو الأخرى. وتنبهت جيسي إلى أنها قد سمحت
لنفسها بأن تنطبق على الفكرة التي أخذها عنها فقالت
بحرقة: «هل أنت راضٍ بما فعلت؟»

أدار أدريان محرك السيارة بحركة عنيفة وضغط على دواسة الوقود بسرعة جعلت السيارة تقفز إلى الطريق مجرجرة الدواليب عليه وصوت صريرها يرتفع إلى السماء.

«نعم أنا راضٍ.» أجابها أخيراً: «الطريقة التي تجاوبت بها معي الآن كانت ممتعة جداً. على الأقل، أنا أعرف الآن أنني سأكون في داخلك حتى وأنت مع جو. وستحلمين دائماً بمتعة وجودك معي.»

أدريان لم يعرف ولكنها الحقيقة الفصل. فعناقه قد جدد سيطرته على عواطفها. هل ستكون أبداً متحررة منه؟

«أنا مسرورة لأنني قمت أخيراً بشيء يسعدك.» قالت جيسي والمرارة تتآكلها: «ولكني لا أعتقد أن هذا كافٍ كي تتوقف عن بناء السور حول حديقتي، أليس كذلك؟»

تنهد أدريان دلالة على نفاد صبره وقال: «السور الذي أبنيه لا علاقة له بك البتة. منذ عودتي والصحافيون يحيطون بي من كل حدب وصوب. ولا أستطيع العمل بهدوء ومن هنا جاءت فكرة بناء السور لأعزل نفسي وأنجز عملي من دون أي تدخل.»

«إذاً لا مجال ما لأتفاءل بالتوقف عن بنائه.»

تمتم أدريان وكأنه يكلم نفسه: «أنت لا تستسلمين أبداً. الواقع هناك وسيلة للتخلص من هذا السور.»

كانت جيسي تعرف أنها يجب ألا تعقد آمالاً كبيرة ولكنها سألت: «وما هي الوسيلة؟»

«باستطاعتك بيعي منزلك. وسأدفع لك ما يكفي ليكون بمقدورك شراء بيت محترم في مكان آخر.»

إنه لعرض مغرٍ، أن تبتعد عنه وعن هذا المكان. وستتحرر

من عذاب رؤيته كل يوم وهي تعلم الصورة التي رسمها عنها بأنها كانت خائنة، الصورة التي بمقدرتها تغييرها.

وأيضاً عليها أن تفكر بابنها سام. فبرغم إمكانية أن يعرف أدريان السر، فمصلحة سام مهمة ولذلك أجابت: «لا أستطيع البيع. لقد وجدت صعوبة كبيرة في إيجاد المدرسة المناسبة لابني في هذه المنطقة ولا أريد أن أقع في الحيرة نفسها مرة أخرى.»

«لم ادر أنك موفقة في اختيار المدارس.»

أنا لست كذلك. لقد أخبرتك أن سام ذكي بشكل استثنائي. وتم فحص درجة ذكائه من قبل المختصين.» مستبقة أي اتهام منه في أن أمومتها تجعلها تبالغ في تقدير ذكاء سام.

«إذاً أين المشكلة؟»

«المدارس التي لديها القدرة والتجربة لتعليم أولاد بهذا الذكاء قليلة. ومدرسته السابقة، لم توفر له العناية اللازمة مما أصابه بالكسل ومال إلى اللعب بكثرة.»

«ولكن هذه المشكلات هي عامة بين الأولاد.»

«بعض هذه المشكلات قد تتحول إلى كارثة.» أجابت جيسي وهي تتذكر الأيام العصيبة التي قضتها مع سام السنة الفائتة وأضافت: «لا أستطيع المخاطرة بنقله إلى مدرسة أخرى.»

«أستطيع فهم ما تعنين.» قال أدريان بلهجة مهذبة أدهشتها.

«إذاً تستطيع أن تقدر موقفي أيضاً برفضي البيع والانتقال؟»

«بالطبع. ومنذ الآن عليك التعود على السور الذي أبنيه.»

الفصل الثالث

التهمت جو قطعة أخرى من الشوكولا الموضوعة على طبق أمامها. وأحست جيسي بالغيرة وهي تراقبها، كيف تستطيع جو أن تأكل بهذه الشراهة من دون أن يزداد وزنها ولو أوقية؟ لا يزال قوام جو مثل قوام راقصة الباليه. وهي ما كانت عليه في صباها قبل أن تصبح معلمة موسيقى وهي بطولها الـ ١٦٥ تستطيع أن تمشي وتتحرك بلباقة وخفة الراقصة حتى الوقت الحاضر. ولكن ميزة جو الأساسية هي في رقة قلبها وطيبتها اللتين لا مثيل لهما في كل أدلايد.

«حاولت أن أخبرك ولكن لم تنصتي إليّ.» قالت جو بفم مليء بالشوكولا.

«كدت أنام وأنا واقفة على قدمي عندما كنت أكلمك على الهاتف ولم يدر ببالي أنك تحاولين إخباري بشأن السور.»

«لم أكن أحاول إخبارك بشأن الجدار ولكن بشأن من يبنيه. فعندما أخبرتني بأنك رأيت أدريان أدركت أن الأولاد قد فات لإخبارك بعودته. ولكن في الوقت نفسه كنت قد أقنعت نفسكِ بأن ما رأيتِه كان سراباً يتخايل لك بسبب تعبك من السفر. ولكن بعد ذلك كدت أصاب بالسكتة القلبية عندما رأيتكما معاً في السيارة.»

علا وجه جيسي تكشيرة وقالت: «كيف كان لي أن أعرف أن الرجل الذي رأيته هو بالحقيقة أدريان؟ لقد كنت الشخص الوحيد في أوستراليا الذي لم يعلم بعودته.»

«لقد حاولت إيصال الخبر لك عدة مرات.» قالت جو تأكيداً على كلام جيسي: «ويظهر أنك كنت إما منشغلة عن قراءة الصحف بأعمالك، أو أن الأخبار التي أرسلتها لم تصل إلى كاليفورنيا. وظننت أنه سيكون هناك متسع من الوقت لكي أخبرك حين عودتك قبل أن تلتقي به...» غيرت جو ملامح وجهها وقالت ممازحة: «... وكنت سأجد متسعاً من الوقت لو أطعتني وبقيت نائمة حتى حلول الوقت الذي سآتي به لأعيد سام.» وأكملت جو بصوت يشوبه الحزن المصطنع: «وكنت قد وعدتني بذلك.»

رفعت جيسي يديها إلى الأعلى علامةً على الاحتجاج وقالت: «يا صديقتي، لقد حاولت أن أطيعك. ولكن من المستحيل النوم مع أصوات العمال وقرقعة البناء حول حديقتي.»

أنصتت جو للحظة ولكن الصوت الوحيد الذي سمعته من الحديقة كان صوت ابنتها نيل وهي تلعب مع سام، فسألت: «هل هم يعملون اليوم؟»

رئيس العمال قال إنهم لن يعودوا للعمل قبل بضعة أيام. ويظهر أنهم توقفوا عن العمل بسبب اعتراضي على بناء السور.»

وصلت اسماعهما صوت ارتطام كرة المضرب بالسور.

«لقد وجد الأولاد فائدة من هذا الجدار، غير الفائدة التي يتوخاها المالك من بنائه.» قالت جو تعليقاً على استعمال السور من قبل الولدين للعب كرة المضرب.

«أنا سعيدة لأن أحداً سيستفيد من بناء السور.» قالت جيسي ثم نظرت إلى صديقتها جو نظرة رجاء وأكملت: «ماذا سأفعل يا جو؟ لا أستطيع البقاء من دون حراك وأراقبه يطوقني بالسور. لقد بدأت الحديقة

تظهر وكأنها سجن مع أن البناء لم يكتمل بعد.

«هل حاولت التفاهم مع زوجك السابق؟»

شرعاً، هو ما زال زوجها وليس زوجها السابق. ولكن جيسي لم تصحح كلمة جو وأجابتها: «لقد فعلت كل شيء ممكن. لم يبق عندي غير أن أركع على ركبتي راجيةً له. لقد تغير عما كان عليه في الماضي. لقد أصبح قلبه أشد قساوة وأختفت رقته. وأي مناقشة في الموضوع لن تجدي.»

وبما أن جيسي كانت قد أخبرت جو ما أخبرها أدريان عن غيابه ولماذا ترك الجميع يعتقدون أنه ميت، مالت جو برأسها لتقترب من جيسي وقالت: «ربما أنه الشيء الذي لا تريدين سماعه، يا عزيزتي، ولكن يبدو أنك السبب في هذا التغير.»

«أنا؟ وكيف ذلك؟»

«إذا كان يحبك، كما تقولين فالانفصال لا بدّ أنه آلمه كثيراً.»

نفت جيسي ذلك بحركة من يدها، وقالت: «أوافق معك أنه قد أحبني. ولكنني كنت أمثل له تحدياً كبيراً ولما انتصر سرعان ما انتقل إلى تحدٍ آخر.»

«على الأقل هذا التحدي الآخر لم يكن امرأة ثانية.» قالت جو وهي ترفع فنجان القهوة إلى فمها.

«في بعض الأحيان أتمنى لو كان هذا التحدي الآخر امرأة ثانية. فمن السهل تهشيم وجه امرأة ولكن كيف تستطيعين قهر الجبل الذي امتلك حواس أدريان؟»

«عندك حق بذلك.» قالت جو وهي تنظر بشوق عبر النافذة إلى الولدين يلعبان. «هل فكرت يا جيسي بالبيع والانتقال إلى مكان آخر؟»

تنهدت جيسي وقالت: «لقد عرض أدريان عليّ الشراء ومع أن خطوة كهذه تحل كثيراً من الإشكالات، غير أنها قد تخلق مشكلات جديدة. وأنا لا أستطيع تحمل سنة أخرى من الأزمات النفسية التي أصابت سام السنة الفائتة.»

رفعت جو رأسها عن فنجان القهوة وسألت: «هل أنت ما تزالين تحبينه؟»

أجابت جيسي بشيء من اليأس: «أتمنى لو أعرف بالتأكيد. انفصالي عنه كان المخرج الوحيد المتوافر لي لأنهي عذابي. وتذكر هذه الأيام، قلقي عليه وانتظاري له، تتبع الأخبار عنه، يجعلني أتأكد بأني لا أستطيع معاودة هذه التجربة معه. لقد كان الأمر أسهل عليّ عندما كنت أظن أنه ميت ـ وباستطاعتي تحمل الحزن عليه ومع الوقت أستطيع أن أنسى ولكن الآن...» ولم تستطع جيسي إكمال الجملة.

«الآن، الشيء الوحيد المختلف الآن هو أنه حي ولا يعني ذلك إعادة إحياء الماضي.» قاطعت جو بصوت خافت.

ترقرقت الدموع في عيني جيسي، وقالت: «ولكن إحياء الماضي قد يكون الفرصة الثانية والأخيرة لنا.»

تمتمت جو غاضبة: «آه من الرجال! لماذا ندع أنفسنا نقع في الحب مع من سيسبب لنا الأذى أكثر من غيره؟»

«هل كانت قصتك مع تورن شبيهة بقصتي؟»

هزت جو رأسها موافقة وقالت: «في بعض الأحيان كنت أشعر بأني أريد قتله بسبب عمله في مهنة خطرة ولكني تزوجته حسب قول الإنجيل... حتى يفرقكم الموت.»

«لا بدّ أن الإنجيل لم يأخذ إلا بالأسباب الطبيعية للموت عندما ذكر هذا القول؟»

قالت جو محدقة في وجه جيسي: «لقد تأكدت حين عقدت قراني من عدم وجود ملاحظات مكتوبة على أسفل ورقة الزواج.»

«هل تعنين أنه كان عليّ البقاء مع أدريان على الرغم من كل شيء؟»

وضعت جو فنجانها جانباً وتنهدت ثم قالت: «الجواب على هذا السؤال هو عندك فقط يا صديقتي.»

أحست جيسي بالهلع لما بدا على جو أنها أصبحت على استعداد للعودة إلى منزلها فقالت: «قبل أن تذهبي أريد طلب شيء منك.»

«ما هو هذا الشيء؟»

ابتلعت جيسي ريقها بصعوبة وقالت: «لو صدف والتقيت بأدريان لا تخبريه بأنك أنت جو التي كنت أعيش معها خلال فترة غيابه.»

ظهر تعبير من الحزن على وجه جو وقالت: «لقد كنت أعرف ذلك! أنتِ تخجلين من صداقتي لك.»

كادت جيسي أن تتصدم لهذا الاستنتاج قبل أن تعرف أن جو تمازحها فقالت: «تعرفين، أني لست من هذا النوع من النساء. ولكن عندما ذكرت اسمك أمام أدريان ظنك رجلاً والآن يعتقد أن جو هو والد سام الحقيقي.»

أطلقت جو صفير استغراب وقالت: «ولماذا تدعينه يظن ذلك، بحق السماء؟»

«لا أستطيع اخباره بالحقيقة. أنت لا تعرفين أدريان، هو من النوع الذي يُريد كل شيء أو لا شيء. وإذا عرف أن سام ابنه فلن يتوقف عن شيء حتى يحصل على حضانته.»

تثاءبت جو مستنكرة: «هل تنكرين على أدريان حقه في حضانة ابنه؟»

«أضحي بأي شيء لكي يعرف سام أن أدريان هو والده. ولكن أدريان لن يرضى أبداً أن يكون والداً في عطلة نهاية الأسبوع فقط.»

لاحظت جيسي انعكاس ألمها على وجه جو وهي تقول لها: «الآن قد فهمت، لكن كيف يستطيع الحصول على حضانة ابنه بعد هذا الوقت الطويل وقد كان لا يدري حتى بوجوده؟ لقد كنت أنت الوالد الوحيد الذي يعرفه سام. والقضاة ليسوا بوحوش قاسية القلب ولن يحكموا له.»

«أعرف ذلك، ولكن لا أستطيع المخاطرة. أعرف أن تربية سام بمفردي ستكون نقطة إيجابية لمصلحتي في المحكمة. ولكن مشكلة سام النفسية في العام الماضي تكون نقطة سلبية قد تستغل باتهامي بأني قد سمحت لعملي بأن يطغى على واجباتي كأم.»

تذكرت جو الأيام التي أمضتها في رعاية سام. فظهر عليها الاضطراب وقالت: «أنت على حق، يمكنه جداً تضخيم هذا الأمر إذا كان لديه أحد الأسباب الكافية ليوقع بك الأذى والحرمان.»

انزلقت الكلمات من فم جيسي من دون تفكير: «أدريان عنده الأسباب الكافية. إنه يكرهني ويحقد عليّ.»

«هل يعرف أنك ستخسرين وظيفتك قريباً؟» قالت جو محاولة أن تغير موضوع الحديث.

«قد يكون البقاء بلا عملٍ أسوأ.» أجابت جيسي وملامحها تنم عن حيرتها: «اسمعي يا جو، لقد خططت كل شيء بحذر وتأنٍ، ودرست كل ما يتعلق بمؤسسات الدخل المحدود في

كاليفورنيا حتى أنجح في تأسيس شركتي الخاصة. الآن لا أعرف إذا كان بإمكاني المضي في هذا المشروع، أو أن أتنازل وأوقع العقد الجديد مع غراتون.»

تمشت جو في الغرفة وقالت: «الحالة التي أنت فيها مقرفة ومحيرة. هل فكرت بالعودة لأدريان؟»

بدأت جيسي لا شعورياً، تلملم فناجين القهوة وسألت: «ما الذي يجعلك تظنين أنه يريد عودتي؟»

«أنت تقولين إنه يكرهك، ولكن إذا عرف أنك لم تكوني على علاقة برجل آخر وأن سام هو ابنه لما بقي عنده سبب ليكرهك.»

«لا أستطيع العودة إليه. والسبب هو كما تعلمين السبب نفسه الذي تركته من أجله. لن يهنأ لي العيش طالما سأتعذب بقلقي عليه وانتظاره. ومن الأفضل لسام أن يبقى من دون أب من أن يعرف أن له أباً ومن ثم يخسره.» قالت جيسي هذه الكلمات وهي ترتجف بتوتر مما جعل فناجين الشاي تهتز بعنف فوق الطبق الذي تحمله.

شعرت جو باللوعة والأسى على ابنتها نيل التي فقدت والدها فذهبت إلى النافذة ونظرت على الولدين ثم قالت: «أتساءل عما إذا كانت نيل توافقك على هذا الكلام.»

أحست جيسي أنها تكلمت بلا تفكير وأنها قد أثارت ذكريات أليمة في نفس صديقتها. فربتت بيدها على ذراع جو وقالت: «أنا آسفة يا جو، كان عليّ أن أفكر قبل أن أتكلم وأسبب لك الألم.»

تمالكت جو نفسها وأجابت: «لا بأس. لديها كريس الآن وهي قد بدأت تعتبره والدها.»

حضنت جيسي جو بحرارة وقالت: «أنا سعيدة من أجلكم جميعاً.»

شكرت جو جيسي على عاطفتها نحوها ثم أبعدتها عنها قليلاً وقالت بجدية: «عندي فكرة، لماذا لا تذهبين لزيارة اللورد مارك غراتون؟ لقد كنتما صديقين حميمين دائماً وقد قصد الخير من الجمع بينك وبين أدريان.»

«ولكن لم يعد له أي علاقة مع الشركة.»

«أعرف ذلك، ولكن لديه أصدقاء نافذون في الشركة. وقد يكون باستطاعته مساعدتك في التفاوض على العقد الجديد.»

حضنت جيسي جو مرة ثانية وقالت: «لماذا لم أفكر بذلك من قبل؟ أنت رائعة والاقتراح جدير بالمحاولة. وأريد أيضاً رؤية منزلهما الجديد.»

سألت جيسي الليدي غراتون بالهاتف وسألت إذا كان بالإمكان زيارتها. ووجدت أن الليدي غراتون متشوقة لرؤيتها وقالت لها: «كنا نتساءل عن كيفية تعاملك مع الواقع الجديد.»

«أريد أن أتكلم معك بهذا الشأن.» أجابت جيسي وقبل أن تكمل قاطعتها سوزان قائلة: «دعينا لا نتكلم عن ذلك الآن. تعالي لشرب الشاي غداً. مارك سيسر جداً بزيارتك.»

هل سيكون مسروراً يا ترى؟ راودها السؤال وهي تضع السماعة مكانها. كانت جيسي متأكدة من أن سوزان كانت صاحبة المفاجأة التي صفعتها، وهل كان اللورد غراتون موافقاً على ذلك؟

وقد وجدت جيسي الجواب على تساؤلها فور وصولها إلى بيت غراتون الجديد. وبعد أن تجولت في أنحاء الدارة الفخمة ـ المحاطة بالحدائق والمزودة بكل أسباب الترفيه.

كانت سوزان تحضر الشاي عندما أمسك مارك بيدي جيسي بكلتا يديه وقال: «أخبريني يا عزيزتي، هل غفرت لزوجتي تدخلها في شؤونك الخاصة؟» ولاحظت جيسي أن سوزان عند سماعها ذلك اكتفت بتحضير الشاي على الرغم من ظهور ملامح التوتر على وجهها.

«لم يكن هناك من خطأ كي أغفره، لقد فعلت ما فعلت بنية طيبة.» وعندما رأت جيسي أن حدة توتر سوزان قد خفت، استطردت قائلة: «ولكن كان عليها إخباري قبل أن تفعل ذلك.»

رفعت سوزان رأسها ونظرت إلى جيسي وقالت: «لقد أحسست بأن القدر أراد ذلك، لقد عاد أدريان إلى البلاد في الوقت نفسه الذي قررنا فيه بيع المنزل.»

«سوزان لن تشفى من هذه الرومانطيقية.» أضاف اللورد مارك وهو ينظر إلى زوجته بحنو.

«قد يمضي وقت طويل قبل الوصول إلى النهاية السعيدة فأنا لم أكن صادقة معكما تماماً. لقد انفصلنا أنا وأدريان عن بعض وكنا على خصام شديد.»

ظهر الأسى على وجه سوزان الحالم وقالت: «يا إلهي، ماذا فعلنا؟»

رفع اللورد مارك حاجبيه وقال: «أتتكلمين بصيغة الجمع؟ لست أنا من كان في عجلة من أمره في إخلاء البيت لأدريان.»

هزت زوجته رأسها احتجاجاً وقالت: «إنها غلطتي. لقد كان في نيتي أن أرى جيسي وأدريان سعيدين.»

جلست جيسي قرب سوزان وأمسكت بيدها ثم أردفت: «كنا سعيدين من دون هذه المفاجأة.»

«إذاً أنت لا تكرهينني لتدخلي في شؤون حياتك؟»

هزت جيسي رأسها نافية وقالت: «أحبكما. أنتما مثل عائلتي، وأعرف أن نيتك كانت سليمة.»

هز اللورد غراتون فنجان الشاي فوق الطبق إشارة إلى أنه فارغ، فسارعت سوزان إلى ملئه ثانية وقال: «والآن وقد انتهيتما من الحديث الرومانطيقي أريد أن أسألك ما الذي اسمعه من أنك تريدين ترك عملك؟»

«للأسف، هذا صحيح.» وأوضحت جيسي لمارك بنود عقدها الجديد وشروطه، وقد سرها أن يبدأ اللورد غراتون الحديث في هذا الموضوع. «ولولا حاجة سام إلي لما مانعت في العمل ساعات أطول.»

تنهد مارك بشدة وقال: «أنت على حق، كالعادة. ولكن، سيندمون لأن الطريق التي شقوها هي خاسرة وسيفتقدون موهبة قديرة مثل موهبة شابتنا جيسي.»

«خسارتهم لي ليست جسيمة بهذا القدر.» اعترضت جيسي: «ولكن سأفتقد عملي، ولهذا جئت إليك طلباً للمساعدة.»

«كيف أستطيع مساعدتك؟»

«كنت أتساءل إذا كنت تستطيع التدخل لمصلحتي مع إدارة الشركة بشأن العقد الجديد. فإذا استطعت الإبقاء على الشروط نفسها التي هي في العقد القديم، فسأبقى في العمل.»

وضع مارك يده على جبهته واستغرق في التفكير ثم قال: «لم يعد لي هذا النفوذ الواسع في الشركة، خاصة وأني رفضت أن أكون عضواً في مجلس الإدارة. ولكن سأحاول ما باستطاعتي.»

لفّت جيسي ذراعيها حول رقبة مارك وقالت فرحة: «أنت ملاك يا عزيزي.»

أجابها مارك غامزاً من قناة زوجته: «إن سوزان لا تناديني بهذا الاسم.»

«إن الإسم الذي يناسبه أكثر هو شيطان عجوز.» أكدت سوزان كلام زوجها بنبرة دافئة. ثم سألت جيسي: «ماذا ستفعلين إذا لم يستطع مارك تنسيق شروط العقد؟»

«آمل أن أؤسس عندئذٍ مخزني الخاص.» اعترفت جيسي باستحياء. ولكن نظراته المؤيدة شجعتها على الاستمرار: «الزميل الذي يعمل معي في الشركة، جوزيف رايدر، سيترك العمل أيضاً وقد اتفقنا على تأسيس شركة لتصميم الديكور لذوي الدخل المحدود.»

سأل اللورد مارك بعد تفكير: «أي مكان ستستأجرين؟ وهل كونتِ فكرة عن ذلك؟»

«لا، ليس بعد، سأبدأ البحث الآن بعد أن انهيت مهمتي الأخيرة مع الشركة.»

«صديق لي سيفتح مركزاً تجارياً خلال الأسابيع القادمة، ونوع عملك يناسب هذا المركز. وإذا أحببت، سأتكلم معه عن مشروعك - في حال عدم حصول تقدم بشأن عقدك الجديد.»

دبّ الحماس والترقب في جسم جيسي. وأرادت أن تخبر شريكها أن احدى مشكلاتهما الرئيسية قد حلّت وقالت بحرارة: «لا أعرف كيف أشكرك يا مارك.»

«أريدك أن تأتي في المرة القادمة لزيارتنا ومعك ابنك العبقري.» قالت سوزان.

«أعدك بذلك.» أجابت جيسي ضاحكة.

عندما وصلت جيسي إلى منزلها لم تر سام يلعب في الحديقة. ولم تر سيارة مربيته متوقفة في مكانها المعتاد مما جعلها تشعر بالهلع على الفور. هل حدث أي مكروه لسام؟ وتخايل لها منظر المربية وهي تسرع بسيارتها ناقلة سام إلى المستشفى. ربما اتصلت المربية بها عند آل غراتون بعد مغادرتها وقبل الوصول إلى هنا.

أخذت جيسي تنادي بصوت مرتفع والخوف قد تملكها: «دولورس؟ سام؟» ثم دخلت المنزل ورمت حقيبتها على أرض الغرفة.

وصرخت بصوت هستيري عندما ارتطمت برجل كان واقفاً في الداخل، وشعرت بذراعيه تطوقانها لتهدئا من روعها. «مهلاً، مهلاً يا جيسيكا. إنه أنا، أدريان.»

تلوت جيسيكا بين ذراعيه وقالت: «أدريان! ماذا تفعل هنا؟ هل حدث أي سوء لابني؟»

«هيا اهدئي. لا شيء حدث. إنه هنا معي وبأمان.»

ولكن جيسي أرادت أن تتأكد بنفسها فأفلتت منه واتجهت بسرعة إلى غرفة الجلوس، حيث رأت سام جالساً على الأرض وأمامه مجموعة من الرسوم والأشكال الورقية، ومن دون أن ينظر إليها قال سام: «مرحباً يا أمي.»

«مرحباً.» ردّت جيسي على تحيته وهي تحدق فيه وتكاد أن تلتهمه بعينيها. إن سام على ما يرام. لا شيء حدث له. لم يصب بأي رضوض أو كسور كما خُيل لها. شعرت فجأة بغثيان ومالت على حافة الباب لتوازن نفسها.

اقترب أدريان منها وقال: «هل أنتِ بخير؟»

«سأكون بخير بعد دقيقة. عندما وصلت إلى البيت ووجدتك ظننت أن...»

«الأسوأ قد حصل.» قاطعها أدريان: «كانت أمي تتصرف هكذا في سنوات مراهقتي عندما كنت أتسلق الصخور. أعتقد أنها غريزة الأمومة.» ابتسم بزهوٍ وقال: «ولكن كما ترين إنه على ما يرام.»

حلّ الغضب في نفسها مكان الخوف وقالت: «هكذا إذاً، هل تمانع في أن تخبرني ما الذي يحدث هنا؟ أين دولورس؟»

«دعيني أجلب لك الشاي، وسأخبرك بكامل القصة. لقد وضعت الماء على النار منذ دقائق ولا بدّ أنها تغلي الآن. تحضير الشاي لن يأخذ أكثر من دقيقة الآن.»

ولكن خلال مرور هذه الدقيقة منتظرة الشاي، وصل غضب جيسي إلى درجة الغليان. وبدأت تفكر كيف سمح أدريان لنفسه بالهزء من مخاوفها ومخاوف أمه؟ كل واحدة انتظرته بدورها بقلق شديد. إنه لا يعرف أن الأم تموت آلاف المرات كل مرة يتعرض أحد أولادها للخطر. كيف يمكنه أن لا يحس بالآخرين. لم يخلص لأحد لأنه لم يبق في مكان واحد وقتاً كافياً لتنمية هذا الإخلاص.

«أنت غاضبة مني؟» قال أدريان بعد أن لاحظ التعابير على وجهها.

«لقد أصبت الهدف تماماً. أرجو أن يكون سبب وجودك هنا وجيهاً.»

«خذيني بحلمك. أنا لست في محكمة هنا. عليك أن تهبطي من علياءك. الذي حدث بالفعل هو أني قد أديت لك خدمة.»

«وما هي هذه الخدمة؟»

«تلقت مربية ولدك مخابرة هاتفية تفيدها بأن ابنها قد وقع له حادث في معسكر الكشافة. وتمّ نقله إلى المستشفى ويحتاجون إلى توقيعها لإنهاء معاملات المعالجة.»

وضعت جيسي يدها لا شعورياً حول رقبتها. وقالت: «يا للسماء العزيزة! هل سيكون ابنها بخير؟» ودولورس تعيش مثل جيسي تربي ولدها الوحيد دانييل، من دون زوج.

«إنهم يظنون ذلك، ولكن وجب عليها الذهاب فوراً. فحاولت الاتصال بك هاتفياً ولكنك كنت على الطريق قادمة إلى هنا. رأيتها عند البوابة في حالة من الهستيريا وتطوعت لأبقى مع سام مقنعاً إياها بأني زوجك بالفعل بعد أن أريتها صورتنا معاً لأن دولورس لم تكن لترضى بترك سام مع غريب على الرغم من الحالة التي كانت فيها.»

شعرت جيسي بحراجة موقفها وقالت: «أدين لك باعتذار، يا أدريان. وشكراً لتدخلك لمساعدتي.»

أحست جيسي أن غضبها قد ترك أثراً في نفس أدريان بعد اعتذارها. ونظر إلى سام يلعب على الأرض وقال: «لم يكن هناك أي مشكلة. أنا وسام قد انسجمنا مع بعضنا البعض.»

رتبت جيسي شعرها وقالت: «نعم أعرف أنه يستطيع التنبؤ بأحوال الطقس. وأعرف أنه يستطيع أن يتنبأ بأشياء أخرى كثيرة.» ثم استغرقت في التأمل. إنه يستطيع إبقاء روحها أسيرة له. وإبقاء جسدها على نار الرغبة إليه. ولكن سام لن يتأثر بهاتين الميزتين لدى أدريان. لأن سام في هذا المجال لا يزال عمره ست سنوات

والعلاقات الأنثوية ـ الذكرية لا تعني له شيئاً غير الملل.

«لقد تباحثت معه في أحوال الطقس.» قال أدريان بهدوء.

قال سام لأمه وعيناه تلمعان: «هل تدرين يا أمي أننا نعيش في قعر محيط الهواء؟ إنه يدعى الجو.»

«يا له من واقع!» أجابت جيسي مصطنعة الاندهاش: «ولكن لماذا لا نغرق في هذا المحيط.»

شمخ سام بأنفه استنكاراً لجهل أمه وقال: «لأن هذا المحيط مكون من الهواء، بالطبع. والطقس هو الحركة الدائرية للهواء حولنا.»

«والذي نسميه...» سأل أدريان.

«تروبوسفير.» أجاب سام بكبرياء ضاحكاً مما جعل جيسي تبتسم وتلقي نظرة على رسومات الحركة الهوائية حول القارات الملتفة على الأرض: «أرى أنكما لم تضيعا الوقت سدى.»

أخذت جيسي نفساً عميقاً، ومدت يدها لأدريان مصافحة. «هل تسامحني لتسرعي في استنتاج ما حدث؟ إني مدينة لك لمساعدتك دولورس وبقائك مع سام.»

مدّ أدريان يداً دافئة لتلقي يد جيسي الممدودة إليه. وما أن لمس يدها حتى أحست جيسي وكأن شحنة من الكهرباء قد أصابتها وانتصب ظهرها من المفاجأة. لقد كان للمسته دائماً فعل السحر فيها. وقد ظنت أن الوقت والبعد سيزيلان هذا السحر عنها. ربما هذا الشعور، الآن، مرده إلى قلقها وخوفها على سام.

ومضت عينا أدريان بالغضب عندما أحس برودة فعلها العفوية وقال: «هل لي أن أعرف لماذا تنفرين في كل

مرة ألمسك بها؟ ألا تعرفين كيف يؤثر بي ذلك؟»

أشارت جيسي إلى سام محذرة، وكأنها تقول، لا تدعه يسمعنا. وقالت بصوت خافت: «كيف يؤثر بك؟ أنت لا تفكر إلا بنفسك وهذا كل ما يهمك. أما كيف أنا أحس أو أشعر فهذا لا يعني شيئاً لك، خذ مثالاً على ذلك. بناء قلعتك الخاصة بسور يعزل حديقتي وبيتي.»

«أعلمك أن بناء الجدار قد توقف.» أجاب أدريان: «لأننا لم نجد المواد اللازمة في السوق.»

«في هذه الحالة، سأسرع إلى حديقتي لاتمتع بالشمس أطول وقت ممكن قبل أن تباشر العمل ثانية.»

بدا أدريان وكأنه على وشك الإنفجار وقال: «تباً لك يا جيسي. لقد ظننت أنك ستسرين لهذه الأخبار خاصة وأن شحنة المواد اللازمة لن تصل قبل عدة أسابيع.»

كان يجب أن تشعر بالانتصار عليه مؤقتاً. ولكنها، شعرت بالإحباط وكأنها خسرت بدلاً من أن تربح. كانت تتمنى أن يوقف أدريان العمل في السور تبعاً لرغبتها وليس بسبب نقص المواد. ولكن لماذا تشعر بهذه الخيبة؟

«لو سررت، لكنت منافقة.» قالت جيسي: «أنا شاكرة لك وآسفة لأنك تواجه بعض المصاعب.»

ابتسم أدريان وقال لها: «شكراً، في الحقيقة يجب أن أتعود ثانية على هذه المصاعب. يعيش الإنسان في الأدغال على حافة الخطر ولكنه يقاتل من أجل البقاء. ولكن كيف يمكن هنا محاربة التجار والبيروقراطيين؟»

ابتسمت جيسي وقالت: «أهلاً بعودتك إلى العالم الحقيقي المتمدن.»

جلب سام لأدريان قطعة من الورق واستند إلى ذراعه وقال: «هل تشرح لي ثانية ما هو مدار الحصان.»

كان على الورقة التي حملها سام رسم للكرة الأرضية مقطعاً شرائح بخطوط رفيعة من الجنوب إلى الشمال. وضع أدريان إبهامه على خط الوسط وقال: «كما أخبرتك، هذه هي منطقة الزوابع والهواء ذي الضغط العالي. تقع فوق هذا الخط وتحته المناطق الهادئة وتدعى مدار الحصان، أو مدار الهواء ذي الضغط المنخفض.»

رفعت جيسي حاجبها مندهشة وسألت: «مدار الحصان! ما هذا الإسم؟»

«عندما كانت السفن تبحر قديماً في هذه المدارات، كان البحارة يلقون بجيادهم إلى المحيط خوفاً من نقص مياه الشرب.» أجابها سام على سؤالها بشعور من الأهمية.

ولم تدهش جيسي لسعة معلومات سام فقد تعودت أن تكتشف أنه اكتسب شيئاً جديداً كل يوم وقالت له: «حسناً، ولكن ماذا تفهم من ذلك؟»

أجاب سام بتركيز واضح: «إن ذلك يشبه أرض المعركة. فالكتل الهوائية المتنافرة تلتقي مع بعضها وهذا يؤدي إلى تغيرات الطقس والمناخ حولنا.»

قال أدريان: «أعدك يا سام بأني سأخبرك، في المرة القادمة، كل شيء عن الضغط الجوي.»

«أريد أن أصبح مثلك يا دكتور كول خبيراً بالمناخ.» خاطب سام أدريان. ثم استدار إلى أمه وقال: «لقد أخبرني دكتور كول يا أمي بأنه قد تسلق قمة جبل إفرست وقام برحلة إلى القطب الجنوبي.»

انتقلت عدوى الحماس إلى جيسي من ابنها ولم تتمالك نفسها من الضحك وقالت: «أنا متأكدة من أن الدكتور كول سيخبرك كل شيء عن رحلاته، إذا لم تجعل من نفسك لصقة خردل.»

«هل أنا مثل لصقة الخردل يا دكتور كول؟» سأل سام أدريان وكانت كبرياؤه قد جرحت.

مرّرت جيسي أصابعها في شعر سام وأحست بهبوط في قلبها. لقد أعجب سام كثيراً بأدريان. هل من العدل إبقاؤهما منفصلين؟ لكنها لا تستطيع المجازفة. «على أي حال.» خاطبت جيسي سام بقولها: «لقد حان الوقت لإلقاء تحية المساء على الدكتور كول. لا بدّ وأن لديه ما يعمله إلى جانب محادثتك.»

نظر سام إلى أدريان وقال: «هل سألتها؟»

«لا، ليس بعد، ربما يجب عليك أن تسألها أنت.»

أحست جيسي بأصابع من الثلج تقبض على قلبها. ماذا يجري بين الإثنين؟ هل اكتشف أدريان الحقيقة؟ إنها لا تستطيع أن تتحمل هذا الترقب.

«لقد وافق الدكتور أدريان على أن يدعني أرى الصور التي التقطها خلال رحلاته وأرجو منك يا أمي أن توافقي.» وارتد سام إلى حركاته الطفولية وقال مستطرداً: «هل أستطيع ذلك يا أماه؟ أرجوك، هل أستطيع ذلك؟»

كيف تستطيع أن تمنعه عن هذه الدعوة المهذبة التي لا تعني شيئاً مهماً. فأجابت: «لا أرى ضرراً من ذلك.»

«حسناً، موعدنا الليلة إذاً.» اقترح أدريان.

أحست جيسي بالاختناق وقالت: «لقد أخذنا من وقتك كثيراً اليوم.»

«إن وقتي ملكي. سأكون مسروراً لو سمحت لي بطلب الطعام لك من المطعم. يبدو لي أنك بحاجة لبعض الراحة.»

«أرجوك، يا أمي.»

وجدت جيسي نفسها قد وقعت تحت حصار الإثنين وحيّرتها فكرة قضاء المساء مع أدريان. فهو يعرف كيف تشعر تجاهه وتحس بوجوده، انفعالاتها العاطفية بدلاً من أن تتضاءل مع مرور الزمن قد ازدادت قوة أكثر من أي وقت مضى.

ذكريات حياتهما معاً تطفو على السطح أحياناً كثيرة، وتحرك العواطف العنيفة في داخلها كانت اعتقدت أن هذه العواطف قد ماتت ودفنت.

وفي الجانب الآخر عليها أن تأخذ احتياجات سام في الاعتبار. لقد أخبرها معلمو مدرسته بأن سام يحتاج إلى التمثل برجل في حياته. ورؤيته يتجاوب مع أدريان، يؤكد أنهم كانوا على حق. فهي لم ترَ إلا نادراً هذا التحفز القوي عنده كما رأته هذا المساء. لسام الحق بأن يعرف والده، أدريان، حتى ولو لم يعرف حقيقة العلاقة بينهما.

قالت جيسي: «حسناً سنأتي.» وشعرت جيسي بقوة أنها ستندم على ذلك خاصة وأن تعابير الإنتظار المتشابهة على وجهي سام وأدريان أعطتها شعوراً من الانقباض وكأن سام اختار الجانب الذي يفضله، جانب أدريان.

الفصل الرابع

«لقد ذكر سام مراراً العمة درو، من هي؟» سأل جيسي وهما في طريقهما إلى منزله.

«العمة درو هي السيدة دروري، صديقة لي، وقد تعرفت عليها حين أنجبت سام وقد كانت خير عون لي. عندما كان طفلاً يتعلم الكلام لم يستطع لفظ كلمة دروري، وحالياً هي السيدة نابير. ولكن بالنسبة إلى سام ستبقى العمة درو إلى الأبد.» أجابت جيسي على سؤال أدريان، وهي تشكر في نفسها العادات القديمة التي لا تسمح للأطفال بمناداة الكبار إلا بإسباقها بكلمة العمة أو العم.

أضافت جيسي، عندما سمعت صوت الرعد وأحست بقطرات المطر تسقط على وجهها: «يلوح في الأفق نذير عاصفة ممطرة وقوية.»

التقط أدريان سام وحمله بذراعه القوية، ووضع الذراع الثانية حول كتفي جيسي، وقال: «لقد لاحظت ذلك، هيا نسرع قبل أن نبتل جميعاً بالمطر.» وبرغم ذلك، كانوا يقطرون ماء عندما وصلوا إلى مدخل منزله.

«إنه يرتجف. سام بحاجة إلى حمام ساخن.» قال أدريان بعد أن دلفوا داخل المنزل بمنأى عن العاصفة. وفي الخارج، بدا وكأن العاصفة قد استجمعت كل قواها.

أدركت جيسي أن العاصفة ستبني حولهم شرنقة وتأسرهم داخلها وتعزلهم مثل ضحايا سفينة غارقة على

جزيرة نائية، هزت برأسها رافضة. وقالت: «سام يحتاج إلى تغيير ملابسه فقط. يجب أن نعود إلى المنزل قبل أن تسوء العاصفة أكثر.»

«إن العاصفة أصبحت على أسوأ حال. سأجد له بعض الملابس الجافة، واذهبي أنت واملئي مغطس الحمام بالماء الساخن.»

لم يعد بإمكان جيسي إلا الإذعان، ولأنها تعرف تقسيم البيت جيداً، لم تأخذ وقتاً طويلاً قبل أن تحضر الحمام وتضع سام في المغطس. جلب أدريان قميصاً من القطن المطبوع عليه رسوم افريقية وكلمة زيمبابوي، «هل تظنين أن هذا القميص سيعجبه؟»

«سيصل هذا القميص إلى ركبتيه.» أجابت جيسي وهي تأخذ القميص من يده وتضعه على مشجب المناشف، ثم جلست على حافة المغطس تصب الماء الدافىء على ظهر سام.

«على هذه الصورة، إنكما تشبهان منظر العذراء والطفل.» قال أدريان وهو يراقبهما.

علا الاحمرار وجه جيسي. لكنها رفضت بينها وبين نفسها الاعتراف بأن تعليقه الأخير قد سرها، مفكرة بأن احمرار وجهها مرده إلى حرارة غرفة الحمام. تمنت لو أدريان يشغل نفسه بشيء آخر عوضاً عن مراقبتها في هذا الوضع. فقد أحست بأن نظرته المحدقة إليها قد اخترقتها حتى الأعماق، على الرغم من أن ظهرها كان له. فقالت: «أستطيع أن أتصرف بمفردي الآن، شكراً.»

أدرك بوضوح أنها تصرفه عنها، فقال، والخيبة تملأه:

«حسناً. سأذهب، وسأطلب من عمال المطعم أن يرسلوا لنا طعاماً صينياً.»

«وماذا عن العاصفة؟» سألت جيسي، وقد أذهلها أنه لا يزال يتذكر تفضيلها الطعام الصيني على غيره.

قال وهو يبتسم ساخراً: «لا المطر، ولا الثلج، ولا ظلام الليل... سيمنع ذلك، سيكون الطعام هنا في الوقت الذي تنتهين فيه من أخذ حمام ساخن.»

اختفى بضع لحظات وعاد وهو يحمل روب حمام من القطن الأبيض وقال: «ارتدي هذا الروب بانتظار أن تجف ملابسك.»

وجدت جيسي زجاجة من أملاح الحمام كانت موضوعة على حافة المغطس، وألقت بقليل منها في الماء، وسرعان ما تشكلت رغوة كثيفة على سطحه. أطلقت جيسي تنهيدة ارتياح وهي تغطس كل جسمها ما عدا رأسها وأعلى كتفيها تحت هذه الرغوة.

«لقد قرعت الباب، ولم تسمعي بسبب استغراقك بالتفكير. لقد أحضرت لك كأساً من الشراب.»

فتحت جيسي عينيها ونظرت إلى الأعلى، إنها لم تر أدريان يدخل غرفة الحمام، ويضع كأس الشراب على حافة المغطس ولم تنتبه إلى توقف الحديث بين أدريان وسام. وأحست أن قربه منها قد أدار رأسها، وحاولت أن تبقى هادئة. «شكراً لك. سأتمتع بشربه.»

عوضاً عن أن يغادر الحمام، استند أدريان إلى الجدار منتظراً جيسي كي يراقبها وهي تشرب الشراب. بيد مرتعشة، قربت جيسي الكأس من فمها.

ربما إذا جرعت الشراب بسرعة سيتركني ويغادر الحمام.

«خذي وقتك، لن يصل الطعام قبل ربع ساعة.» قال أدريان بهدوء أثار غيظها. وفي الوقت نفسه شعرت بالخيبة لأنها لاحظت أن رؤيته لها في الحمام عارية لم تسجل أي انفعال على وجهه.

«ماذا يفعل سام الآن؟» قالت جيسي وهي تحاول توجيه الحديث إلى مجرى آخر.

«إنه يشاهد الصور التي التقطتها عن القطب الجنوبي.» نظر أدريان باتجاه غرفة الجلوس حيث سام من دون أن تدل ملامح وجهه على شيء، وقال: «إنه ولد رائع، يا جيسيكا.»

النبرة في حديثه كانت تدل بوضوح على أنه لا يأخذ الولد بجريرة خطيئة أمه. وقالت: «إنني فخورة به.»

أومأ أدريان برأسه موافقاً، وقال: «عندك الأسباب الكافية لتكوني فخورة به. إن شخصيته تذكرني بنفسي عندما كنت في مثل عمره. ولا أدري لماذا أشعر بالغموض يلف هذا الشيء.»

قسوة المفاجأة في كلمته، جعلتها تضغط بقوة على الكأس في يدها وتسحقه، تناثرت قطع الزجاج المكسور في المغطس وعلى أرض الحمام.

ردة فعل أدريان جاءت سريعة. «لا تتحركي، ستجرحين نفسك.» وضع عدة مناشف على أرض الحمام، مغطياً بذلك قطع الزجاج المتناثرة. وحمت هذه السماكة قدمي جيسي من الجروح. عندما وقفت على قدميها، ساعدها أدريان ووضع منشفة أخرى حول جسمها. وبعفوية، أبعد أدريان

خصل الشعر المبتلة عن وجهها، وتلاقت عيناهما. شحب وجه جيسي لذلك واختفى كل لون في عينيها.

«جيسيكا.» لفظ أدريان اسمها بعذوبة. وأحست أن مقاومتها تنهار بسرعة عندما حضن أدريان جسمها الملفح بالمنشفة، وقال: «يبدو وكأن هذا الموقف قد عاد من الأيام الماضية، أليس كذلك؟»

أخرجت جيسي لسانها ولعقت شفتيها. وأحس أدريان بحرارة زفيرها. «لا أريد...» بدأت بالقول وهي لا تعرف تماماً ما لا تريد.

ناداهما سام، قاطعاً السحر الذي لفهما: «لقد وصل الطعام!»

وكأن صوت سام قد ذكر أدريان بخيانة جيسي له فتغيرت ملامحه، وقال: «سأذهب لأتسلم الطعام. انتبهي وأنت تجففين نفسك لئلا تجرحك قطع الزجاج المكسور.»

إن الجروح التي قد تصاب بها من جراء الزجاج المكسور ستكون بسيطة بالمقارنة مع الجروح التي يسببها الألم النفسي ويقطع ما في داخلها. للحظة واحدة فقط، شعرت جيسي أن لمسة أدريان قد أمحت كل سنوات الوحدة والألم، وأنهما يعيشان معاً كما في الماضي.

ولكن صوت سام أيقظها من وهمها. أدريان لم يكن لها قط عندما يصل الأمر إلى حياته الخاصة، وهذا شيء يجب أن لا تنساه أبداً.

حين انهت جيسي تجفيف جسمها، ارتدت ثوب الحمام وتوجهت نحو غرفة الطعام لتنضم إلى أدريان وسام. وعندما دخلت، رأت سام يقوم، بتوجيه من أدريان، بسكب

الطعام الصيني في الصحون. وقد لاحظت على الفور أن أدريان قد رمقها بنظرة وحدق إلى روب الحمام الملتف حول خصرها والمنشفة التي غطت بها شعرها. وتوترت أعصابها. إن الارتباط السحري بينهما لم يذهب تماماً، وعلى الرغم من ذلك لم تحظ، فيما عدا التحديق، بأي ردة فعل منه.

«العشاء جاهز.» قال أدريان. وسأل سام: «العيدان أم الشوكة؟»

«العيدان، من فضلك.» أجاب سام: «لقد علمتني أمي كيف استعملها.»

علت محيا أدريان بسمة ساخرة، وأدار شفتيه، وقال: «يبدو لي أن والدتك مليئة بالمفاجآت.»

أحست جيسي بشيء من ضيق النفس. «لقد تتلمذت على يد معلم بارع.»

لقد كانت تعني أن أدريان معلمها البارع، ولكن أدريان أصرّ على البقاء على سوء فهمه. «أهو جو العتيد؟»

قاطع سام الحديث ببراءة وقال: «العمة درو قالت إن الأكل بالعيدان هو وسيلة ناجحة لتأكل أقل. إنها تستعمل العيدان في أكل أي شيء، حتى السباغيتي.»

لم يعر أدريان بالاً لما قاله سام، ولم ينتبه إلى أن الولد قد ربط اتوماتيكياً بين ذكر اسم جو وبين العمة درو. سام لا يعرف إلاّ جو واحدة. «على ما أظن إنها إحدى وسائل لتخفيف الوزن.»

وضع أدريان أمام جيسي، على الطاولة، صحناً من اليخنة. وضع أيضاً العيدان بجانب الصحن، ولكنها لم تأكل

إلا قليلاً لأن شعورها بالضيق كان قد أفقدها الشهية. أبعدت بعد ذلك الصحن عنها، وجلست تراقب سام وهو يأكل. انفرج إحساسها بالضيق عندما أعلن سام أن معدته قد امتلأت بعد انتهائه من أكل الميرومة الصينية.

أبعدت جيسي مقعدها عن الطاولة ونهضت. «في هذه الحالة، من الأفضل أن نعود إلى البيت. ونضعك في الفراش أيها الرجل الصغير.»

لاحت تعابير الاحتجاج على وجه سام. «لماذا يا أماه؟»

«أعتقد أنه من الأفضل أن تناما الليلة هنا.»

كادت جيسي أن تكسر أحد عيدان الأكل إلى نصفين، وقد فوجئت باقتراحه. «لحظة، من فضلك...»

لم يظهر على وجه أدريان أي انفعال، وكأنه لم يقترح منذ ثانية أن تنام عنده. أو هل هي ظنت أنه اقترح ذلك وقد لعب الشراب برأسها.

«لا تستطيعين أخذ سام إلى البيت في هذه العاصفة.» قال أدريان مبعداً بذلك أي احتمال آخر.

تثاءب سام مراراً ونظرت جيسي إلى أدريان وكأنها تسأل في ما يجب عمله. ولم يطل أدريان حيرتها بل حمل الولد بين ذراعيه. «تعال معي يا سام لقد حان وقت النوم.»

ضحك الولد ولف ذراعيه حول عنق أدريان. وعاود جيسي الشعور بأنها واحد ضد اثنين في هذا الوضع. وفي صمت متوتر، تبعت جيسي أدريان عبر القاعة التي توصل إلى غرفة نوم صغيرة. وأدهشها وجود سرير مفرد في الغرفة وغطائه قد طوي جانباً استعداداً للنوم.

«لقد أعددت الفراش له، تحسباً، عندما كنت تأخذين

الحمام، وفي حال موافقتك على البقاء.» أوضح أدريان.

راود جيسي شعور بالإهانة لثوان معدودة، ولكن هذا الإحساس اختفى بسرعة. يجب أن تتوقف عن تفسير كلمات وحركات أدريان على أساس شخصي بحت. مدت يداها لتأخذ سام من بين ذراعي أدريان، وابتسم سام لها بجفون أثقلها النعاس. «إنه نائم تقريباً.»

فرك سام عينيه بكلتا يديه. «أنا لست نعساً.» ولكن تثاؤبه الطويل فضح كذبته.

حلت الضحكة مكان العبوس. «ليس هذا ما أرى.»

تلكأ أدريان قليلاً حتى انتهت جيسي من وضع سام في السرير، ومن تغطيته باللحاف. وفي الوقت الذي طبعت فيه قبلة على رأسه كان سام قد أغلق عينيه، وأخلد إلى النوم. «هذا هو الوقت الذي يبدو فيه سام في عمره الحقيقي، ست سنوات.» قالت جيسي وهي تبتعد عن السرير.

وضع أدريان يده على كتف جيسي. «وبقية الأوقات يبدو وكأن عمره ست عشرة سنة.» ثم أطفأ النور في الغرفة بصمت، راقبا سام وهو نائم، وقد ألقى الضوء المنبعث من القاعة شعاعاً من النور على وجهه! بعد ذلك خرجا بهدوء من الغرفة.

ما أن وصلا إلى وسط القاعة، حتى غرقا في ظلام دامس بسبب انقطاع التيار الكهربائي، مما جعل جيسي تطلق، بشكل عفوي، صيحة خافتة.

أحست جيسي بدفء يد أدريان وهو يضعها على ظهرها. «لا تنزعجي، إنه انقطاع في التيار فقط.»

قاد أدريان الطريق رجوعاً إلى غرفة الجلوس، أشعل

شمعتين، كانتا في الشمعدان الجانبي. «لحسن الحظ لم يبدأ داڤيد تجديد هذه الغرفة.» وأضاف قائلاً: «إنها الآن المكان الوحيد في البيت، إلى جانب المطبخ، الذي أستطيع فيه العثور على ما أريد.»

«لقد لاحظت أنك على وشك الإنتهاء من تجديد المكتبة.» وقد شعرت جيسي بالارتياح للتكلم في مواضيع عامة. فالحديث معه في أي موضوع خاص، يشد أعصابها ويجعلها قلقة ومتحفزة.

«لم يبق علينا إلا تركيب السوار الخشبي للجدار. وقد جددنا هذا السوار طبقاً للأصل لكي نعيد للغرفة رونقها الأصلي.»

«ستبدو رائعة.» قالت جيسي مؤكدة كلامه: «مع أن كثيراً من الأملاك قد بيعت، ولولا ذلك، لكان بإمكانك إعادة إنشاء العرائش والحديقة الانجليزية.»

فوجيء أدريان بمعلوماتها. «كيف تعرفين ذلك؟»

«لقد قمت ببعض الدراسات عندما اشتريت بيت الحراس. وقد وجدت أنه في مطلع القرن التاسع عشر، كان مالكو هذا البيت يملكون أيضاً كل الأراضي الواقعة في هذا الوادي. الكرز كان يأتي من العرائش ويعبأ بصناديق من الخشب ويرش عليه مسحوق الفلين، ومن ثم يشحن إلى سوق كوفنت غاردن في لندن. العربات كانت تصل كل يوم محملة بالركاب الذين يأتون لزيارة العرائش والحديقة الانجليزية. البيوت الزجاجية، في الحديقة الانجليزية، كانت تحتوي على أندر وأجود أنواع النبات في العالم. ومن حسن الحظ أن المالك الأصلي لهذا الوادي كان ثرياً ويملك منجماً للذهب، ولم

يبخل بالمال لتمويل مشاريع الحديقة الزراعية.»

مشى أدريان إلى الطاولة الجانبية، وصب قليلاً من الشراب من زق كان موضوعاً على الطاولة، وأعطى جيسي الكأس المليئة. «هل عرفت شيئاً عن تاريخ هذا البيت؟»

«بني على الطراز الجورجي، وكان البيت الريفي لمالكي الوادي. لماذا تسأل؟»

«لا شيء، فضول مني فقط.»

جرع أدريان الشراب من كأسه بتمهل وصمت لم يكن يقطعه إلا صوت العاصفة، وصوت قطرات المطر وهي تضرب بشدة على زجاج النوافذ. وفي الوقت ذاته كان البرق يضيء الغرفة من فترة لأخرى.

وكلما ومض البرق كانت جيسي تتكمش على نفسها، في انتظار صوت الرعد الذي سيتبع. وفيما كان كل مرة البيت يهتز من قوة الصوت، ومن دون أن تدري، وجدت جيسي نفسها تزحف على الأريكة العريضة، مقتربة من أدريان.

لم تفت أدريان حركتها. «ألا تزالين تخافين من صوت الرعد؟»

أرخت جيسي رأسها إلى الأمام، وعلى ضوء الشموع لم يستطع أدريان رؤية تعابير وجهها. «صوت الرعد كان يخيفني دائماً. لو كان سام مستيقظاً الآن، لتظاهرت بالشجاعة.»

«أنتِ لا تتظاهرين، عندك من الشجاعة أكثر مما تظنين.»

هزت رأسها بالنفي: «لا، ليس عندي الشجاعة لتسلق الجبال وقطع القارات مثلما تفعل أنت.»

«مثلما كنت أفعل.» صحح أدريان جملتها من صيغة

الحاضر إلى صيغة الماضي، وأضاف: «الشجاعة على أنواع.»

«لا أدري ماذا تعني.»

نظر إليها أدريان بعينين مليئتين بالدمع، ولكن من دون أن تفصحا عن شيء. «الشجاعة هي أن تنجحي في الحياة بعصامية، الشجاعة في أن تربي ولداً بمفردك. هذه هي الشجاعة من نوع آخر.»

«لقد قمت بذلك بحكم الضرورة.» أوضحت جيسي: «الشجاعة، كما قال أحدهم، هو أن تقوم بعمل كنت تخاف القيام به.» استوعبت جيسي فجأة تصحيحه السابق لصيغة جملتها، فنظرت إليه. «لماذا قلت أن تسلق الجبال أصبح شيئاً من الماضي؟»

تغرغر فم أدريان بالكلام وقال: «كنت أتساءل متى ستبدئين بالهجوم. لقد طلبت مني مراراً أن أستقر وأصرف النظر عن السفر. وها أنا، نهائياً، أفعل ذلك.»

اتسعت حدقتاها من الدهشة لما قاله: ولكن أدريان، بسبب الضوء الخافت، لم يلاحظ ذلك. «أنت؟ تصبح بيتوتياً؟ منذ متى؟»

«منذ أن أمضيت سنوات في الأدغال، وقد تغيرت مفاهيمي عما هو مهم في الحياة.»

قاومت جيسي انتعاش الآمال في صدرها. إذا تغير أدريان بالفعل، هل هناك من أمل في عودتهما لبعضهما؟

«ما هذا الذي ذكرته عن مسلسل تلفزيوني جديد؟»

«أنا مساعد مقدم هذا البرنامج، الشخص المسؤول الذي يجلس في الاستديو، يربط اللقطات المختلفة في تسلسل

واضح ومنطقي ويضع التعليق المناسب عليها. إنه يشبه العمل في البرامج الرياضية. عندما يتعلق الأمر بنقل وقائع المباريات، لا تبقى هناك حاجة للتنافس في كل لعبة رياضية.»

قالت جيسي بحذر: «ألن تفتقد متعة هذه الحياة بعد أن كنت مولعاً بها؟»

هل تخيلت أم رأت أن أصابعه قد انقبضت على كأس الشراب الذي يحمله؟ «بالطبع سأفتقد هذه الحياة، ولكنني أصبحت في الثانية والثلاثين من عمري، وقد حان الوقت لأفسح المجال على الجبل لجيل أصغر مني عمراً.»

أحست جيسي بانقباض في قلبها، وحاولت قراءة وجه أدريان وعينيه علها تجد ما يشير إلى ألم دفين لم يفصح عنه. ولكن ملامح أدريان الحادة، وجسده المتناسق، المفتول العضلات، لم تنم عن شيء. ومع ذلك أرادت التأكد. «هل أصابك أي مكروه يبعدك عن الرحلات؟»

«أنا؟ لا قدر الله، لا، لم يحدث لي أي مكروه.» حرك رأسه من جانب إلى آخر، ورفعه بسرور وسخرية. «هل أنا ألاحظ نغمة الاهتمام بي فجأة؟»

أحست جيسي بلسعة شكوكه الواضحة، فشدت يديها إلى بعض. بالطبع هي تهتم. فقد أحبته دائماً. ولكنها لم تستطع إقناعه عندما شك بأنها تركته من أجل رجل آخر أصبح والد ابنها.

«اسمح لي ببعض الحنين إلى الماضي.» قالت بهدوء: «العاصفة، والشراب... أنت نفسك قد قلت إن هذه الأمسية تشبه أمسياتنا في الماضي.»

لقد انتظرت طويلاً هذا الشعور بالبهجة الذي تملكها، وفي حنايا عقلها الباطن كانت جيسي متأكدة بأن هذا الشعور بالبهجة لا يمكن أن تحسه إلا مع أدريان. وإذا هو بالفعل قد تغير...

ولكن ماذا إذا لم يتغير؟ لقد عاد منذ عدة أسابيع فقط. ماذا لو تملكه هوسه بالمغامرات ثانية؟ بمجهود خارق، تجاهلت جيسي الرغبة الصارخة في داخلها، وأطفأت النيران التي أشعلها عناقه في أعماقها. يجب أن تتأكد أولاً أنه قد تغير فعلاً قبل أن تطلق العنان لعواطفها الجياشة التي تصرخ في داخلها.

«أرجوك أن لا تفعل.» قالت جيسي وكلماتها تنطق بما تعنيه.

«اعذريني، لقد نسيت أن لديك أولويات أخرى هذه الأيام. هل يعلم عشيقك جو أن زوجك قد انتقل ليصبح جارك؟»

كيف تستطيع تجنب الكذب عليه؟ ولكنها حاولت قائلة: «لم أرَ من الضروري إخباره.»

«إذاً، هو لا يعرف؟ هل تخافين من أن هذا سيقضي على ثقته بك؟»

«لا يوجد هناك أي جو في حياتي - على الأقل ليس كما تتخيل.» انفجرت جيسي غاضبة وقد اعتراها شعور بالخجل من هذه القصة. ولو لم يكن الأمر من الأهمية البالغة، كي تخلق والداً وهمياً لسام، لكانت اعترفت لأدريان بكل شيء.

نظر أدريان إلى وجهها محدقاً. «هذه الصرخة تأتي من أعماقك. هل هو الذي تركك، يا جيسيكا؟ هل، أخيراً، أتى من جرعك من السم نفسه؟»

«ما الفرق إذا هو تركني أو أنا تركته؟ إلا إذا كان يسعدك أن رجلاً قد أكلني لحماً ورماني عظماً.»

«كيف أشعر بالسعادة لوضع كهذا؟ لست أنا من طلب الانفصال عنك، هل تذكرين؟»

«إذاً، الخطأ كله يقع عليّ.»

شتم أدريان بصوت خافت: «لم أقل إنها غلطتك.» فوقف متمشياً ذهاباً وإياباً في الغرفة، وقد ألقى عليه ضوء الشموع ظلالاً مثل ظلال قضبان السجن، فبان كأنه حيوان في قفص. «لامعنى الآن لأن نجتر هذا الموضوع ثانية. لقد انتهت فصوله.»

بالنسبة له ربما، أما بالنسبة لها فلا. فهي لم تأخذ بالحسبان تفجر عواطفها وذكرياتها في هذه الليلة. وهي لم تعرف أي رجل منذ غياب أدريان وست سنوات هي مدة طويلة. لقد أحست بهذا الحرمان والشوق يتآكل داخلها. هل أحس هو بهذا الحرمان أيضاً، أم وجد متنفساً آخر لإرضاء رغباته؟ لقد قال إنه قاوم هذا الإغراء في الأدغال.

«ربما يجب أن نكتفي بالحديث عن مواضيع عامة مثل برنامجك المتلفز.» اقترحت جيسي: «هل من اسم لهذا المسلسل؟»

«نعم، اسم مؤقت على حافة الحقيقة. إن غاية المنتج من هذا البرنامج هو نقل المشاهدين إلى أماكن لم يروها من قبل، مثل أنهار غينيا الجديدة الباطنية، ونتوءات خليج يورك، وحتى إلى الفضاء الخارجي إذا استطعنا ترتيب ذلك.»

كان أدريان بالنسبة لها جبل إفرست نفسياً. وكي تشفى

منه كان عليها تسلقه. أن تسمح لأدريان بدخول حياتها ثانية، يعني أنها ستبدأ ثانية بالتسلق من سفح هذا الجبل النفسي. ومع ذلك، كانت قمة هذا الجبل تناديها - ويا إلهي، بأي قوة تناديها.

«يبدو لي أن التيار الكهربائي لن يعود الليلة.» قال أدريان. والتقط شمعة أعطاها إلى جيسي، ثم التقط شمعة ثانية له: «من الأفضل أن نخلد إلى النوم.»

الغرفة التي قادها إليها هي الغرفة التي كانت سوزان غراتون تحتفظ بها لتستعملها ابنة عرابها عندما تأتي لزيارتها. ويبدو أن أدريان قد اشترى مع المنزل معظم مفروشاته، فقد ميزت السرير المصنوع من خشب الأرز، بأعمدته الطويلة، والخزانة الأثرية التي اشترتها سوزان من سوق الأشياء العتيقة. وبالنسبة للغرفة نفسها فقد لاحظت جيسي أن قشرة الإسمنت قد أزيلت عن الجدران وافتلع البلاط عن الأرض.

«آسف، لأن الغرفة غير مريحة كفاية. ولكني لم أتوقع زواراً يقضون الليل عندي.» اعتذر أدريان.

«لا بأس بها. ولكني مازلت أفكر أنه كان باستطاعتنا العودة إلى البيت في خلال خمس عشرة دقيقة.»

«وتصابان بالبلل حتى أخمص أقدامكما، وهذا بسبب السور الذي بنيته.» قال أدريان بشعور من الندم: «إن أقل ما يمكن أن أقدمه في هذا الحال، هو أن أوفر لك مكاناً لقضاء الليل.»

تثاءبت جيسي وضحكت، مرددة كذبة سام منذ وهلة: «أنا لست ناعسة لهذه الدرجة.»

«تصبحين على خير. وإذا ما أخافتك العاصفة، ناديني، فأنا نائم في الغرفة المجاورة.»

ابتلعت جيسي لعابها بصعوبة. لماذا كان عليه أن يذكر كم هو قريب منها؟ الآن تتخيله وهو نائم على سرير آل غراتون الكبير، سيسلب أحلامها. لم يكن يحتمل ارتداء البيجاما، بل كان ينام عارياً، دائماً. جعلها التفكير بهذه الصورة تلعق شفتيها بتوتر. لماذا وافقت على البقاء؟ لقد كان من الأفضل أن تصاب بالبرد من جراء الابتلال بالمطر من أن تضع نفسها في هذا الأتون من العذاب النفسي والجسدي.

ولكن سام، إنه معرض كثيراً لإصابات البرد. أن يبتل بالمطر مرة أخرى يعني أنه سيقع مريضاً وتضيع عليه الدراسة. إن رضيت أم لم ترض بالبقاء، لم يكن عندها بديل آخر.

عندما تركها أدريان في غرفة النوم بمفردها، خلعت جيسي عنها رداء الحمام واندست تحت غطاء الفراش. وأحست بوخزة وبر الصوف على جسدها ـ لم تشعر بعدم الارتياح ولكن الوخزة ذكرتها بزياراتها لبيت جدتها في أدلايد عندما كانت طفلة.

تداعت أفكارها نحو أيام طفولتها، واعتراها شعور بالوحدة. لقد مات جداها منذ وقت طويل، ودفن والدها بقربهما بعد أن أصيب بالسكتة القلبية ومات وهو في الخمسين من عمره. أمها تزوجت ثانية، وانتقلت لتقيم في كوينزلاند. والاتصال الوحيد في ما بينهما كان تبادل بطاقات عيد الميلاد.

لم تكن جيسي على علاقة وثيقة مع امها. في بعض

الأحيان كانت جيسي متأكدة من أن امها تحسدها على حياة المرأة الحديثة التي تعيشها. لو تعرف فقط أن جيسي تمنت كثيراً لو أنها ترجع في الزمن إلى الوراء، إلى جيل امها حيث كانت مسؤوليات المرأة تنحصر بين البيت وموقد النار.

«تربح مرة، وتخسر مرة.» هذا كان شعار جو. عزيزتي جو. في أحد هذه الأيام سأعرف صديقتي على أدريان. كيف ستكون ردة فعله عندما يعرف أن جوكانت راقصة باليه بارعة وتتصرف كالغجرية؟

بقيت جيسي مستيقظة لوقت طويل تستمع إلى صوت العاصفة. كانت تشعر بالدفء تحت اللحاف الصوفي، ولكن في كل مرة يهدر صوت الرعد كانت تتكمش على نفسها. فقط، علمها بأن أدريان ينام في الغرفة المجاورة كان أعطاها الشجاعة. سيأتي، من دون شك، لو احتاجت إلى مساعدته. ولكن هل سيكتفي بتقديم العون فقط؟ من الأفضل أن لا تخضع نفسها لهذه التجربة.

عندما فتحت عينيها ثانية، كانت العاصفة قد ولت والشمس أشرقت على سماء زرقاء صافية. كان من الصعب التصديق، عندما نظرت جيسي خارجاً إلى الحدائق، أن عاصفة شديدة قد ضربت الليلة الفائتة. والأثر الوحيد الظاهر كان أغصان العليقة المتكسرة على النوافذ، وعقب الشمعة المحترقة.

ولكن سرعان ما تبين لها أن شجرة صفصاف كبيرة مقتلعة من جذورها، ولم يبق منها إلا جذعاً محروقاً. كانت

تشهد على عنف العاصفة. كان أدريان على حق عندما أصرّ عليهما بالبقاء. فاحتمال أن يقتلا تحت وابل من الأغصان المقتلعة كان كبيراً.

أفاق سام قبل جيسي وارتدى ملابسه الخاصة، بغير ترتيب. وجلس يشاهد التلفاز - قبل أن تدخل جيسي المطبخ وتراه. «يظهر أن التيار الكهربائي قد عاد ثانية.» قالت بصوت جاف عندما لاحظت أن سام قد خالف تعليماتها بعدم مشاهدة التلفاز في الصباح. ولكنها قررت التساهل معه بسبب الظروف الاستثنائية، وأن اليوم هو الأحد.

«هل رأيت الدكتور كول؟» سألت بصوت عالٍ لكي يطغى صوتها على صوت أبطال المسلسل التلفزيوني. كيف يمكن لأي شخص بمستوى ذكاء سام أن يستمتع بمثل هذه البرامج؟

نظر إليها سام والشعور بالذنب يعتريه، ثم أدار نظره إلى الشاشة ثانية. «لقد خرج، ولكنه ترك رسالة لك. إنها على الطاولة. لقد استأذنته في مشاهدة التلفاز. وقد سمح لي.»

«أنا مسرورة منك لأنك طلبت الإذن لمشاهدة التلفاز.» قالت جيسي بحنو الأم: «ولكن هذه المرة فقط. اسمح لك بمشاهدة التلفاز في الصباح.»

أزاح سام نظره عن الشاشة إلى أمه. «حاضر، يا أماه.»

مشت جيسي إلى الطاولة، واعتراها السرور لرؤية سلة مليئة بالمشهيات. وهي الأنواع التي تطلب بواسطة الهاتف، وتحتوي على كل مأكولات الإفطار اللذيذة. الكافيار، والشراب والفريز وعصير البرتقال. ومدت يدها لتلتقط الرسالة الموضوعة على طرف السلة.

«أنا آسف، لذهابي الباكر.» كتب أدريان: «لقد كدت أن أنسى أن عندي اجتماعاً مع فريق الانتاج. نعم، أنا أعرف أن اليوم هو يوم أحد.» ويبدو أن أدريان قد توقع تساؤلاً من جيسي: «تمتعي بإفطارك وسأعود قبل أن يحين وقت شرب القهوة.»

شعرت جيسي بالخيبة، فقد كانت تفضل تناول الإفطار معه. ولكنها أزاحت هذا الشعور الانفعالي بسرعة عن بالها وهي تؤكد لنفسها أنها ليست جزءاً من حياته الآن. ورفقة سام هي كل ما تحتاجه.

ولكن، مشاركة الكافيار الموضوع على شرائح من الخبز مع ابن ست سنوات، ينظر باستمرار إلى الشاشة الصغيرة، لم تكن بمستوى مشاركة أدريان لها. وإجابات سام، ذات الكلمة الواحدة، على أسئلتها ما تكاد أن تسمى حديث مائدة.

جمعت جيسي، بتكاسل، بقايا المأدبة ووضعت الأطباق فوق بعضها على المجلى. قبل أن تنتهي من غسيل الأطباق، سمعت جرس الباب يقرع.

عندما فتحت جيسي الباب، وجدت نفسها أمام امرأة رائعة الجمال ذات قوام عارضة أزياء، لباسها غير قابل للنقد، كانت مرتدية بدلة، بنطالاً من اللون الباج، واضح أن مصممها من المشاهير. وجه المرأة كان مألوفاً لجيسي، أين رأيت هذه المرأة من قبل؟

«هل الدكتور كول هنا؟» سألت الزائرة.

هذا الصوت الموسيقي! «أنت دافينا داڤيز.» قالت وقد أدركت متأخرة أن الزائرة هي الشخصية التلفازية المشهورة. من المؤكد أنها تعمل مع أدريان في البرنامج الجديد.

ابتسمت الزائرة ابتسامة الواثق من نفسه. «لقد خمنت، أتيت من أجل اجتماع فريق الانتاج مع أدريان.»

«لا بدّ أن هناك خطأ ما. لقد ترك أدريان لي مذكرة يقول فيها إنه ذهب لحضور هذا الاجتماع.»

تنهدت داڤينا داڤيز بحيرة. «يبدو أن الاستديو لم يستطع إخباره بأني قد قررت المجيء إلى هنا. من الأفضل أن أنتظره، فهو سيعود سريعاً عندما يعرف أن مكان الاجتماع قد تغير.»

أفسحت جيسي الطريق، وتقدمت داڤينا إلى غرفة الجلوس، حيث ما زالت زجاجات وكؤوس الشراب ملقاة هنا وهناك. وإعادة ترتيب الغرفة كان غير ممكن بسبب انقطاع التيار الكهربائي. ولاحظت جيسي أن داڤينا تتأمل الغرفة، ومن ثم نظرت داڤينا إليها وسألت: «هل أنت صديقة للدكتور كول؟»

«في الحقيقة، نحن أقرباء.» ولم تجد جيسي دافعاً كي تخبر جيسي بأكثر من ذلك. ها هي الآن تجد الهدف الذي ستوجه إليه رغبتها الجامحة بالقتل. ولكن ذلك لم يسرها، فهي لم تشعر من قبل بالغيرة من امرأة أخرى، ولكنها لم تستطع إبعاد هذا الشعور عنها، والذي اجتاحها مثل حصان جامح. هل كانت داڤينا هي المدعوة إلى سلة الافطار الفاخرة؟

«لم يذكر لي أدريان أن لديه أقارب يقيمون معه.»

«أنا لا أقيم معه. أنا أقيم في بيت الحراس الذي مررت به قبل وصولك إلى هنا.»

«بيت جميل. خسارة، أن تسبب العاصفة كل هذه الأضرار فيه.»

شعرت جيسي بجفاف في فمها. «عن أي عاصفة، وأي أضرار تتكلمين؟»

«يبدو أنك لم ترَي المنزل بعد؟» وبدا على داڤينا الانزعاج الشديد. «آوه، يا عزيزتي، كم أكره أن أنقل الأخبار السيئة...»

«أنا مسرورة لإعلامي بذلك مسبقاً.» أما بداخلها، فقد شعرت جيسي بتسارع نبضات قلبها. ماذا حدث لبيتها؟ استأذنت من داڤينا، وراحت تبحث عن سام. كانت تفضل أن تعاين الأضرار التي لحقت بمنزلها من دون أن يكون معها سام ولكنها لا تستطيع تركه مع امرأة غريبة عنه. وكانت من اليأس بحيث رضيت بأن تأخذ سام معها.

روايتي

الفصل الخامس

حجبت نباتات الأضالية المرتفعة، الواقعة على جانب طريق السيارات الفرعي، قسماً كبيراً من منزل جيسي الذي كان يقع خلفها. في البدء، لم يتبين لجيسي وسام، أن الأضرار التي أصابت المنزل كانت جسيمة. ولكن عندما اقتربا، وفتحت جيسي البوابة الأمامية للمنزل، تبين لها حجم الأضرار التي أصابت بيتها.

سحب سام يده من يد أمه وركض نحو المنزل. أما جيسي التي أصيبت بصدمة فقد وضعت يدها على وجهها صارخة: «يا إلهي، يا إلهي!»

«العاصفة اقتلعت شجرة، ووقعت محطمة غرفة الجلوس.» قال سام.

ما قاله سام كان صحيحاً. فقد اقتلعت العاصفة شجرة الصفصاف التي كانت ترمي بظلها على الباب الأمامي، وجذع كبير منها اخترق المنزل مثل الرمح، عبر نوافذ غرفة الجلوس.

استوعبت جيسي في لحظات مدى الكارثة التي ألمّت بها، وشعرت بتراخي ركبتيها. ولولا أنها أمسكت بعمود الباب، لوقعت أرضاً. لو لم يقنعهما أدريان بالبقاء عنده، في المنزل، لكانت الشجرة قد وقعت على سام، وهو يلعب في غرفة الجلوس، وكان ابنها قد أصبح في عداد الأموات الآن.

«هل أستطيع اللعب في الحديقة الخلفية؟»

أبعدت عن نفسها هذا الشعور العاطفي. «تستطيع أن تلعب بطابة كرة المضرب في الحديقة الخلفية، ولا تعود إلى هنا قبل أن أتأكد من سلامة المكان. أفهمت؟»

«نعم، فهمت.» مشى في الممر الحجري قفزاً، وهو يبعد الأغصان المتكسرة عن طريقه. وعدت جيسي نفسها بأن تزيح هذه الأغصان في أسرع ما يمكن.

مشت جيسي بين الحطام محطمة القلب، وفتحت الباب الأمامي للمنزل، ثم وقفت وضحكت من نفسها. لا حاجة لها في فتح الباب الأمامي كي تدخل، فباستطاعتها الدخول بسهولة من النوافذ المحطمة والمشرعة.

فيما عدا زجاج نافذة المطبخ الذي تكسر، ونوافذ غرفة نومها المشرعة بقوة الريح، لم يبدُ أن بقية غرف المنزل قد أصيبت بأضرار تذكر. إلا أنّ النوافذ المفتوحة في غرفة نومها سمحت بدخول ماء المطر إليها وإغراق سجادتها وفراشها.

كانت جيسي رابضة على ركبتيها، عندما سمعت صوت وقع أقدام على الممر الحجري في الحديقة. ولما نظرت إلى الأعلى، رأت جوزيف رايز يعبر الحديقة متجهاً نحوها.

وقفت جيسي على قدميها تنفض ما علق من أوساخ على ثيابها. «لقد اخترت يوماً هائلاً لزيارتي.»

نظر إلى الأضرار حوله، وبانت على وجهه علامة الشفقة. «خسارة أن يحدث لك ذلك.»

«لقد تضررت هذه الغرفة أكثر من غيرها.» وأشارت عليه أن يتبعها من غرفة الجلوس المهدمة: «تعال إلى المطبخ. إنه على الأقل، لا يزال قطعة واحدة.»

فرد جوزيف: «لا أريد، إزعاجك الآن، لديك ما يكفي من المتاعب.»

«لا بأس. لقد كنت على وشك تحضير القهوة، وسيسعدني وجودك برفقتي.»

تبعها إلى داخل المطبخ الذي كان، بالمقارنة مع فوضى غرفة الجلوس، مفاجأة سارة. وخاصة أن الضرر الوحيد الذي أصاب المطبخ كان تكسر زجاج النافذة واقتلاع نبتة كانت في وعاء موضوع على حافة النافذة.

جلس جوزيف على مقعد الكونتوار المواجه لطاولة التحضير وراقب جيسي وهي تكيل كمية القهوة التي ستستخدمها. «كيف الحال ضمن المدينة؟»

«لم تصب الأماكن هناك بأي ضرر يذكر. يبدو أن العاصفة ضربت بقوتها التلال فقط.»

«لم أكن أتكلم عن العاصفة، بل عن شركة غراتون، هل قدمت استقالتك؟»

ابتسم جوزيف لها وبدت علائم القلق عليه. «لقد طرحت استقالتي، التي جاءت مباشرة بعد استقالتك، عدداً من التساؤلات. إلا أنني مثلك، لا أستطيع العمل مع الإدارة الجديدة.»

«هل تعتقد بأن الاستقالات الجماعية ستشعر الإدارة بأنها على خطأ؟»

قلّب جوزيف بيده المملحة الموضوعة أمامه. «كثير من الناس يرضى بالعمل تحت شروط العقد الجديد، لذلك لن تهتم بهذه الاستقالات.»

تذكرت جيسي ما قاله اللورد غراتون عن تمسكهم

بالموظفين ذوي الخبرة العالية. ويبدو أن ذلك لا يعني شيئاً للإدارة الجديدة. وهذا ما يجعل الفرص المتاحة لعقد اتفاقية بشروط عادلة قليلة جداً.

«على فكرة.» قالت جيسي: «عندي لك أخبار طيبة.»

لم يطرأ أي تغير على وجه جوزيف الرزين. «أنا سعيد لأن لدى البعض أخباراً حسنة لي.»

سرت جيسي بأن تروح عنه، وأخبرته عن زيارتها للورد مارك والليدي سوزان. «وهكذا ترى أن مشكلة إيجاد مكان لمؤسستنا قد حلت.» أنهت حديثها وعلائم الانتصار قد علت محياها.

لم يبد على ملامح جوزيف أنه قد سرّ بما أخبرته جيسي. بخلاف ذلك بدا متوتر الأعصاب. «هل وقعت على أي اتفاقية؟»

«لن أفعل شيئاً كهذا قبل أن استشيرك، ولكن ظننت أنك ستفرح مثلي لحصولنا على هذه المساعدة.»

أرجع جوزيف شعره بتوتر إلى الوراء وقال: «لو أخبرتني بذلك الأسبوع الفائت، لفرحت مثلك.»

«ماذا حدث يا جوزيف؟» لم تلاحظ جيسي، بسبب انشغالها بمشكلاتها، أن شيئاً قد حدث لجوزيف، ولم تلاحظ انحناء ظهره وجحوظ عينيه. لقد بدا أكبر عمراً مما رأته آخر مرة.

لقد مات أبي فجأة يوم الجمعة الماضي.» قال جوزيف.

وضعت جيسي، بعفوية، يدها على ذراع جوزيف. «آوه، يا جوزيف، أنا آسفة جداً لسماع ذلك، تصور أنني كنت أزعجك بمتاعبي الخاصة، عائلتك تقيم في سيدني، أليس كذلك؟»

أجابها: «نعم.» بهزة من رأسه: «إنهم يملكون مؤسسة

للدهان وورق الجدران في إحدى الضواحي. أبي لم يكن قد بلغ السادسة والستين من عمره.»

«وماذا عن أمك؟ كيف تحملت الصدمة؟»

«لم تتحملها بشكل جيد، ولهذا السبب جئت لرؤيتك اليوم. سأسافر بالطائرة إلى سيدني، اليوم، بعد الظهر.»

صبت جيسي القهوة في فنجان وضعته أمام جوزيف. «هل عندك إخوة أو أخوات؟» إنها المرة الأولى التي تسأل فيها عن عائلته، فقد كانت علاقتهما علاقة عمل فقط.

هز رأسه بالنفي وتناول جرعة من القهوة بسرعة، مما جعل وجهه ينكمش من لسعة الحرارة على شفتيه. فأضاف قليلاً من الحليب إلى القهوة لتبريدها، وحرك المزيج بالملعقة وهو لا يزال مستغرقاً في التفكير. «أنا ولدهم الوحيد. لقد أراد والدي أن أعمل معه، متمنياً أن تحمل المؤسسة اسم راينر وولده.»

لاحظت جيسي أن جوزيف يرزح تحت شعور بالذنب، وكأن كل الكلمات استعصيت على النطق، وكل تعابير الوجه جمدت، وكل الأعمال لم تنجز. «لا تعذب نفسك يا جوزيف، لا بد أن والديك كانا فخورين باختيارك لنوع عملك.»

«على ما أعتقد، كانا كذلك. لم أسمعهما ينتقدان عملي يوماً. ولكن أنا الذي أشعر بالذنب.»

«سيزول ضيقك عندما ترى والدتك.» أكدت جيسي له: «وعودتك إلى البيت هي الشيء الصحيح الذي يجب أن تعمله.»

ظهر عليه الإرتياح الشديد وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله. «أنا مسرور جداً، لأنك لا تمانعين في ذهابي يا جيسي، لقد كنت محتاراً في إخبارك ذلك.»

ضاقت عيناها ونظرت إليه من فوق طرف فنجان القهوة التي كانت تتجرعها. «ماذا تحاول أن تقول لي يا جوزيف؟»

«قد لا أعود إلى هنا ثانية. أمي لا تستطيع إدارة أعمال العائلة بمفردها. إنها تحتاج إلى مساعدتي.»

وكأن هوة قد فتحت تحت قدميها، فتراجعت خطوة إلى الوراء، منطوية جسدياً على نفسها بسبب ما سمعته. «ولكن ماذا عن مشروعنا الذي خططنا له؟»

فتح ذراعيه علامة اليأس، وقال: «يجب أن تفهمي وضعي، لقد وضعت كل شيء في حياتي على الرف، حتى أرى كيف ستجري الأمور مع أمي.»

«ولكنك تعرف انه ليس باستطاعتي البدء بالمشروع بمفردي. ولا أستطيع دفع رواتب موظفين في بداية العمل. ولولا وجود سام...»

«أعرف ذلك، وأكره أن أخذلك، ولكن لا سبيل لي غير ذلك.»

وجيسي، لا سبيل لها أيضاً، ولكن ما الفائدة من تحميله تأنيب الضمير بالإضافة إلى ألمه على موت والده؟ «لا بأس، سأرى ما أستطيع عمله بمفردي.» قالت وهي تتصنع الإنشراح: «لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه.»

«أكنتِ تفعلين؟ لو تعرفين كيف أشعر بتحسن في حالتي النفسية، الآن.»

هزت كتفيها إشارة إلى أن الأمر بسيط، ولكنها شعرت بالرغبة في البكاء. «إذا لم يعاضدك الأصدقاء وقت الضيق، فمتى يفعلون؟»

«وعلى ذكر الشيء...»

قالت جيسي بعد أن رأت جو داخل المطبخ. الزيارة كانت غير متوقعة. «من أين انبثقت؟»

«لقد دخلت من الواجهة الأمامية، فالحائط هناك لم يعد له وجود.»

سألت جيسي جو إذا كانت تريد تناول القهوة ولكنها رفضت: «لا تحسبي حسابي، شكراً. لقد سمعت عن الأضرار التي سببتها العاصفة من المذياع، وجئت إلى هنا كي أتأكد من كونكما على ما يرام.»

«كما ترين، لقد هزتنا العاصفة ولكنها لم تقتلعنا.» أكدت لها جيسي: «لقد أمضينا الليلة الفائتة تحت سقف أدريان.»

ارتفع حاجبا جو، ولكن قبل أن تبدأ تحقيقها، قطعت جيسي عليها الطريق، وغيرت موضوع الحديث: «أنتما الإثنان تعرفان بعضكما، أليس كذلك؟»

أومأت جو بتهذيب ولباقة، ولكن جيسي تساءلت كم من الوقت سيمضي، قبل أن تعود جو إلى الموضوع الأساسي: «مرحباً، يا جوزيف، هل أتيت للمساعدة أيضاً؟»

قصت جيسي بسرعة على جو كل ما أخبرها به جوزيف. لحسن الحظ، فهمت جو الموقف تماماً. «بالطبع يجب ألا تكون هناك مشكلة. مثل هذه العقد تحل نفسها بنفسها.»

لم يكن لدى جيسي أي فكرة كيف أن هذه المشكلة، التي عرقلت مشروعها، ستحل نفسها بنفسها. وقد شعرت في هذه اللحظة انها مثل سكارلت اوهارا بطلة قصة ذهب مع الريح، تريد تأجيل التفكير في أي شيء حتى الغد. ولكنه بدا أن الغد في الحياة الحقيقية يكون دائماً اليوم ولا يتحمل الانتظار.

«هل جلبت معك نيل؟» سألت جو.

«إنها في السيارة تنتظر بفارغ الصبر. نحن ذاهبون إلى حديقة الحيوان لمشاهدة حيوان اللاما. وقد ألحت علي في أن أعرج عليكما لأخذ سام معنا.»

«إن أخذك سام إلى حديقة الحيوان سيكون أكبر مساعدة لي.»

«ما رأيك لو بات عندي الليلة، وفي الصباح آخذه إلى المدرسة؟ وأنت تأخذينه من عندي بعد الظهر.»

حضنت جيسي جو بعفوية. «أنت ملاك الرحمة يا عزيزتي.»

ابتسمت جو، ابتسامة مصطنعة وقالت لجوزيف: «لقد أخبرتها بأني كذلك منذ سنين طويلة؟»

سُرَّ سام جداً بذهابه مع جو ونيل، ولاقت فكرة قضاء الليل عندهم قبولاً منه. استطاع في وقت قصير، جمع حوائجه وكتبه. وحاولت جيسي إقناعه بأخذ أشياء أخرى، ولكنه اكتفى بجهاز كاشف الطقس وكتاب عن المناخ أعطاه إياه أدريان.

ودعته خارجاً، ثم رجعت إلى المطبخ وجلست قبالة جوزيف. وظهر أن متاعب النهار بدأت تأخذ مفعولها، فقد شعرت بالإعياء والانحطاط.

«هل تريد المزيد من القهوة؟» سألت جوزيف وصبت لنفسها فنجاناً.

نظر جوزيف إلى ساعته، وقال: «لقد حان الوقت لذهابي. أشعر بنفسي صغيراً، لتركك في هذه الحشرة.»

كانت على وشك التفكير بقول شيء يروّح عنه. لكن لو

أطال زيارته فستشعر بالسويداء مثله: «لا تلم نفسك. ما حدث ليس بغلطتك. إنها ليست غلطة أحد.»

وقف جوزيف قبالتها مترجرجاً. «جيسي، أنت إمرأة رائعة.»

إمرأة رائعة لأنها رفضت أن تحمله مسؤولية الذنب. ولكن كان بداخلها الرغبة في الصراخ والعويل إلى درجة أن سام، لو سمعها، لكان احمرّ خجلاً. ما الذي قاله أدريان عن امتلاكها الشجاعة؟ إن ما تملكه من الشجاعة هو وعاء فارغ بلا قعر. «سأرافقك إلى الباب ـ أو ما تبقى منه.» إذا لم يذهب سريعاً، فسوف تنهار وتنخرط في البكاء.

ظل صامتاً فيما كانا يعبران القاعة. وعند وصولهما إلى الباب المفتوح، فوجئت جيسي عندما وضع جوزيف يديه حولها وعانقها بحرارة. «أنتِ الصديقة وقت الحاجة، يا جيسي كول.»

سمعت سعلة خفيفة على بعد أمتار منهما، وابتعدت عن جوزيف وهي تشاهد أدريان متجهاً نحوهما. كادت أن تطلق ضحكة هستيرية.

رمق جوزيف القادم الجديد باهتمام. «لقد اعتقدت أن انتقالك إلى التلال كان لأجل الهدوء والراحة.»

«بيتي في بعض الأحيان، يشبه سوق راندل.» قالت جيسي. وبما أن أدريان وقف بين جوزيف والبوابة لم تر مناصاً من تعريفهما ببعض.

وما أن ذكرت جيسي، إسم جوزيف راينر، حتى شردت عينا أدريان وتجاهل يد جوزيف الممدودة إليه للمصافحة. «ربما يجب أن أعود للزيارة في وقت أنسب.»

ما الذي وتّر أعصاب أدريان؟ لم يتأثر جوزيف بعدم احترام أدريان له. «لا داع لذلك فأنا على وشك الذهاب.» واستدار نحو جيسي. «سأرسل لك بطاقة بريدية عندما أصل.»

قبّلته قبلة خفيفة على الخد. «أتمنى لك كل الخير والسعادة.»

ذهب جوزيف، وبقي أدريان في مكانه كالتمثال، بلا حراك. «هل هناك من خطب ما؟» سألت جيسي والحيرة بادية على وجهها.

«لا شك في أنك استمتعت بهذه القبلة.» قال أدريان ببرودة.

«استمتعت بماذا؟» ما يقوله كان خارجاً عن المنطق... ثم أدركت ما يرمي إليه. لقد اعتقد أن جوزيف هو المدعو جو في حياتها. وجيسي لم تأخذ بعين الإعتبار أن تصغير إسم جوزيف هو جو، مثل اسم صديقتها تماماً. الآن أصبح عليها أخذ هذه الحقيقة بعين الإعتبار.

ما يحدث كان غير محتمل. الصدمة التي تلقتها عندما وجدت بيتها في حالة يرثى لها من الخراب، ثم تحطم حلمها بمشروعها الخاص والآن شكوك أدريان. وتحت تأثير هذه الأحداث ارتجفت مفاصلها وأدارت ظهرها لأدريان، ولكنه كان قد قرأ بعينيها.

«جيسيكا، انتظري. لم أكن أبغي قط أن يأخذ حديثنا هذا المجرى.»

غمزت جيسي عينيها بقوة، ورفعت رأسها إلى أدريان: «يبدو لي أننا دائماً نحتكّ ببعض بطريقة خاطئة، أليس كذلك؟»

أمسك أدريان ذقنه. «بقليل من التأمل، نستطيع أن نسأل، ما الجديد في ذلك؟»

قالت بعد تردد لحظات: «هل تريد الدخول وتناول القهوة؟»

«في الحقيقة، قد جئت وفي نيتي أن أريحك من سام لبضع ساعات، إذا أراد ذلك.» وبعد أن رأى الحائط المنهار، أضاف: «يبدو لي أنك تحتاجين إلى بعض المساعدة.»

«لقد خطر على بال العمة درو الفكرة نفسها، وقد سبقتك باصطحاب سام إلى حديقة الحيوانات وسيبات عندها الليلة.» قالت جيسي لأدريان وهي لا تدري لماذا تبرعت بالجملة الأخيرة من المعلومات.

«قرار حكيم.» ولكن نبرة صوته كانت تقول إن قرارها كان كل شيء ما عدا انه حكيم. ورأت جيسي لمعاناً غريباً في عينيه.

لاحظت جيسي أن هذه هي المرة الأولى التي يكونان فيها معاً بمفردهما تماماً بعد انقضاء الست سنوات. احتارت بأمرها وتصارعت عواطفها برهة إلى أن تمالكت نفسها. وماذا لو كنا وحدنا؟ ذلك لا يعني شيئاً، ولا يمكن أن يعني شيئاً. يجب أن لا يغيب عن بالها مصلحة سام. كما وأن أدريان عنده دافينا دافيز.

«نعم، أريد قليلاً من القهوة.» أجابها بصوت رقيق جعلها تفيق من شرودها.

«بالطبع، تفضل بالدخول. لا تؤآخذني على هذه الأوساخ في البيت.»

«أوساخ! هذا أقل ما يمكن أن نوصف به هذه الفوضى.

هل تظنين أن باستطاعتك تنظيف البيت بالمكنسة الكهربائية؟»

شمخت جيسي بأنفها. «أعرف ذلك. لقد حاولت التنظيف منذ قليل وفشلت. كما وأن كل زجّاج في أدلايد قد تلقى طلبات ستشغله لعدة أسابيع قادمة، بعدما ضربت العاصفة كل مكان.»

«ربما أستطيع مساعدتك.»

وبما أن جيسي تعرف أن أدريان غير بارع في الأعمال المنزلية. لم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال: «كيف تستطيع مساعدتي؟»

الابتسامة التي ظهرت على جانب واحد من وجهه فعلت أشياء غريبة في داخلها. «سؤال حسن. ما عنيته هو، أن عمال البناء عندي، ليس عندهم ما يعملونه بانتظار العثور على الحجارة المناسبة للسور. وبما أني أدفع أجورهم بأي حال، فمن المستحسن استغلال وقتهم بإصلاح منزلك.»

«وسوف أعوض عليك ما تدفعه لهم.» قالت جيسي بصورة عفوية.

رأت الانزعاج قد بان على وجهه. «أرجو أن تعتبري ذلك خدمة مني.»

شعرت جيسي بالخوف في قلبها. إنها لا تريد أية خدمات من أدريان، ولا تريد توثيق ارتباطها به، فما هو موجود حالياً، يكفي. ومن الغباء تشجيعه أكثر. وعلى الرغم من هذا التفكير السلبي وجدت جيسي نفسها وهي تقول: «أشكرك. ساكون ممتنة جداً لهذه المساعدة.»

تغيرت تعابير وجه أدريان نحو ابتسامة سخرية. «في

الماضي كنتِ قد عاندت وأصررت على رأيك في أن تدفعي لي.»

«في الماضي، كنت مراهقة عنيدة لم تختبر الحياة.» اعترفت جيسي بلا تردد. إن لمن الصعب عليها الآن أن تتخيل انها كانت في الثامنة عشرة من العمر عندما قابلت أدريان. وكأن ذلك كان في عصر آخر.

«لقد كُنت على حق. أنت تغيرت.»

«ليس تماماً.» قالت جيسي وهي تشعر بالرغبة في تحذيره، بأن لا يأمل كثيراً.

أدرك أدريان مقصدها وتنهد بعمق. «أنت لا تزالين تعارضين أن يضع الرجال الناضجون أنفسهم ضد الطبيعة، أليس كذلك؟»

«إنك تشعرني الآن، بأن موقفي هذا جدير بالاحترام.»

ظهر الإنزعاج، مرة ثانية، في عيني أدريان. «جدير بالاحترام، يا للعنة! إن هذا العالم الذي نعيش فيه لكان بقي صغيراً لولا المكتشفون الأوائل الذين ضحوا بكل شيء في سبيل رحلاتهم.»

«هنالك فرق.» قالت جيسي بعناد: «كان لديهم أهداف محددة عندما قاموا برحلاتهم الإستكشافية.»

«المستكشفون المحدثون لديهم ايضاً أهداف محددة.» أصر أدريان على موقفه: «هل فكرت كم من المنتجات الجديدة نزلت الأسواق نتيجة لغزو الفضاء. إبتداء من المنتجات البلاستيكية مثل تفلون وإنتهاء بالتقدم في مجالي الطب والعلوم.»

رمت جيسي برأسها إلى الوراء علامة على التحدي.

«لماذا لا تشرح ذلك لأرامل ضحايا سفينة الفضاء شالنجر؟ وفي المناسبة، لقد اعتقدت أنك صرفت النظر عن هذه الرحلات.»

تثاءب أدريان. «ولكن هذا لا يعني أني صرفت النظر عما أؤمن به.»

«ولا أنا صرفت النظر عما أؤمن به.» قالت جيسي ذلك بصوت خافت جداً، مما جعلها غير متأكدة من سماع أدريان لها. ولكن الصمت الذي لفهما وهو يتبعها إلى المطبخ كان الدليل على أنه قد سمعها. كان حضوره قوياً وهو يمشي وراءها. دقيقتان فقط، بصحبة بعضهما البعض، وها هما يتجادلان بمرارة كما فعلا كل مرة في السابق. ومن سخرية القدر، أن الذي قال إن الأضداد تنجذب إلى بعضها، لم يأخذ تصنيفهما في الإعتبار.

جلس أدريان على المقعد الذي كان يشغله جوزيف من قبل، وقال وهو يتأمل المطبخ: «إنه مريح، هل هذا من تصميمك؟»

«قامت جيسي كول بالديكور، وقدمت شركة غراتون الأكسسوار.» رددت جيسي وكأنها تقرأ شعراً: «وقد ساعدني كثيراً، أن الموظفين في الشركة يحصلون على حسومات كبيرة في الأسعار.»

«ألم تكن الأوضاع سهلة عليك في السنوات الماضية؟»

شفقة أدريان كانت آخر شيء تريده منه. «لقد استطعت البقاء.» وهزت برأسها إشارة إلى عدم الأهمية.

«لقد استطعت البقاء بشكل حسن. هذا المنزل، ابنك ـ يجب أن تكوني فخورة بذلك.»

ولكن النبرة التي لفظ بها كلمة ابنك، شعرت معها بكل شيء ما عدا الإفتخار. لقد أحست بالخجل من إخفاء الحقيقة عنه. لأدريان كل الحق بأن يفتخر بسام مثلها. لو تقنع فقط أنه تغير بالفعل وصرف النظر عن الرحلات لرضيت بمشاركة سام معه. ولكنه قال إن قناعاته لم تتغير، وهي لا تستطيع المجازفة.

قررت جيسي أن تعطي جرعة واقعية للحديث بينهما. «أشكرك على توفير الافطار لنا، هذا الصباح. آمل أن الآنسة دافيز لم تمانع في ذلك.»

رفع أدريان حاجبيه متعجباً: «وما علاقتها في ذلك. لقد أنهينا الاشكال المتعلق في مكان الاجتماع مما جعل إعادة جدولة البرنامج شيئاً بسيطاً لا يسبب أي أذى.»

شيء بسيط، إذا لم يؤخذ بالاعتبار الأذى الذي لحق بكبريائها من احتمال أن تكون وجبة الإفطار الفاخرة قد جهزت لشخص آخر. وعلى أي حال، هذا شيء لا يخصها... ولكن لماذا هذا الشعور، بأنها قد خدعت، يبقى جاثماً على صدرها.

كانت القهوة ما تزال حارة. ولاحظت جيسي وهي تصب القهوة، أن أدريان كان يراقب حركاتها. التركيز الشديد في عينيه عليها، جعلها تفقد تمالكها وتصب القهوة خارج الفنجان على الطبق. قال أدريان ضاحكاً: «لا تشتمي سافيل فنجان القهوة كما هو.»

جلست جيسي قبالته. «لقد سرني أن تفكر بتسلية سام، «كان أملي أن تمضيا اليوم معي، ولكن فهمت الآن لماذا لم تنتظريني وعدت إلى منزلك.»

لقد اعتقد أنها أسرعت بالعودة إلى البيت لملاقاة جوزيف. «لقد كنت قلقة بشأن البيت.» وقد كانت هذه هي الحقيقة التي نطقت بها.

أزاح أدريان ذراعه عن حافة الكونتوار، وأضفت أشعة الشمس، الداخلة من النافذة المكسورة، لمعاناً على شعر ذراعيه المفتولتين. «يبدو أن وداعك لصديقك كان نهائياً.»

لا داعي لأن تكذب عليه: «نعم، إنه نهائي.» مكتفية بتفاصيل الحقيقة من دون روحها: «لقد مات والد جوزيف فجأة وسيعود إلى سيدني ليتسلم أعمال العائلة.»

وكأن شيئاً ما قد سره، فقد لمعت عيناه ببريق غريب. «لا يبدو عليك الإنزعاج لرحيله.»

«أنا غير منزعجة، فيما عدا...» وكادت أن تخبره عن مشروعها مع جوزيف المفترض البدء به. إن أدريان لا يعرف أن جيسي قد أصبحت بلا عمل.

رفع أدريان حاجبيه بفضول. «فيما عدا، ماذا؟»

ما جدوى الكذب عليه؟ سيعرف الحقيقة من مارك وسوزان في أول فرصة يلتقي بهما. «أنا وجوزيف تشاركنا للبدء في تأسيس مخزن لتصميم الديكور.» قالت جيسي بنبرة خالية من الإنفعال.

«وقد وجب عليه الرحيل من المدينة، الآن.» هل تخيلت أم لا أن هناك شيئاً من الشماتة في هذه الكلمة؟ «ماذا ستفعلين الآن؟»

«لا أعرف. لقد انتهى عقدي مع شركة غراتون. آمل في الحصول على عمل مماثل مع شركة أخرى.»

«لا يوجد كثير من هذه المؤسسات هنا. لقد انتهى عصر

المؤسسات العائلية الصغيرة، وعلى أي حال، أستطيع توفير المساعدة لك، حتى تتدبري أمورك.»

قالت بتحدٍ واضح في عينيها: «أستطيع تدبير أموري بنفسي، شكراً.»

فهم السبب في اعتراضها. «لم أكن أقصد بذلك إعطاءك مالاً. أنا بحاجة لخبرتك، يا جيسيكا.»

هذا الطلب كان آخر ما يمكن أن تتوقع سماعه منه. إنها المرة الأولى التي يعترف فيها أدريان بالحاجة إلى أي شيء. في الماضي كانت هي الزوجة التي لا تبارح المنزل بانتظار عودة زوجها الكثير الأسفار، والمتعب في مغامراته. لم يطلب منها يوماً، الذهاب معه في رحلة. «هذا مفاجيء منك، أليس كذلك؟»

«لا، ليس بمفاجيء أبداً، لقد كنت أنوي مفاتحتك بالموضوع عندما رجعت من اجتماعي هذا الصباح، ولكنك كنت قد ذهبت. أحتاج إلى مساعدتك في مشروع حديقة غراتون.»

«مما رأيت، أجد أن لديك جيشاً من المساعدين الذين يتحلقون حول الحديقة كالنحل.»

«ولكن لا أحد منهم يملك مثل خبرتك وموهبتك، واهتمامك بانجاز هذا المشروع.»

ضاقت عيناها وهي تشعر بشيء من الشك في قلبها «كيف تعرف أن هذا المشروع يهمني؟»

«نبرتك وأنت تتكلمين عن تاريخ هذا المكان، لقد قمت بدراسة كل شيء، ما عليك إلا وضع هذه الدراسة موضع التنفيذ، وبعث رونق الحديقة القديم إلى الحياة.

سيكون هذا المشروع تحدياً كبيراً لي، وسيكلف غالياً.»

شعرت جيسي لا إرادياً، أن فكرة تنفيذ هذا المشروع بدأت تتشكل في ذهنها. وما أنعش آمالها أنها تستطيع أن تفعل الكثير في مكان بحجم منتزه غراتون كما وأنها تعرف تاريخ هذا المكان وذوق أدريان.

«توفير المال ليس بمشكلة. لقد كنت أعيش على حافة الفقر في الأدغال، ولكن استثماراتي هنا قد تضاعفت عدة مرات عندما كنت بعيداً، تستطيعين أن تغرفي من المال ما تحتاجين إليه، واحتسبي ضمن ذلك أتعابك.»

إذاً ستعمل عند أدريان. وقع عليها هذا الإحتمال مثل دوش من الماء المثلج. أن تقوم بالديكور لمنزل أو أملاك أحد ما، يعني بالضرورة أن تعمل مع رب العمل بصورة متلاصقة يومياً. هل هي مستعدة لرؤية أدريان بهذه الكثافة؟ وماذا عن المجازفة في أن يكتشف أدريان الحقيقة عن سام؟

«هل ستقبلين عرضي؟» ألح عليها أدريان.

«أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير، إنه عرض ممتاز ولكن...»

«ولكن. أنا لست جو.» قاطعها بغضب وحشي أصاب جيسي بالدهشة.

«لا علاقة له بذلك.» كل شيء متعلق بمشاعرها وعواطفها نحو أدريان والتي أثيرت في اللحظة التي رأته ثانية. إذا كانت تسعى وراء راحة بالها، يجب عليها أن تكتم مشاعرها وتخرج أدريان من دائرة عواطفها. مع ذلك لم تشأ أن تلزم نفسها نهائياً.

«سألقي نظرة على المشروع.» وعدت أدريان: «وإذا لم أستطع القيام به فسأشير عليك بما يجب عمله.»

شرب أدريان ما تبقى من قهوته بجرعة واحدة. «إذاً علينا أن نبدأ في الحال. موافقة؟»

«حسناً، نعم، ولكن...»

لم تستطع الإستمرار بمراوغتها لأن صوتها أغرقه صوت انهيار حجارة عن بعضها البعض، وتحطم زجاج وتكسر خشب. وفي الوقت نفسه غطتهما سحابة رمادية من الغبار. أحست بقوة ذراعيه تحميها. اهتز صوته في أذنها: «ما الذي حدث بحق السماء؟»

الفصل السادس

عاينت جيسي الأضرار وهي تشد على يد أدريان ونظراتها تنم عن الخوف والدهشة. «لقد انهارت الواجهة الأمامية للمنزل برمتها.» همست وكأن الصدمة أفقدتها صوتها.

«يبدو أن الأضرار التي أوقعتها العاصفة بمنزلك هي اسوأ مما تبين لك في البداية.» وشدّ يده على يدها. «عندما أفكر، أنك، منذ قليل، كنت واقفة تحت هذا الجدار، ترتعد فرائصي!» قال أدريان وصوته يرتجف.

انتشر غبار الحطام على شكل غيمة غضية اللون. «يظهر أن عمري طويل.» قالت وهي ترتعد من الخوف. «ماذا سأفعل الآن؟»

«الشيء الأول بالتأكيد، أنك لا تستطيعين الإقامة هنا.» وقبل أن تعترض، عرض عليها أدريان الإحتمال الوحيد الذي لا يمكن أن تتجاهله. «هذا المكان غير آمن بالنسبة لسام قبل معاينته من قبل خبير وإصلاح الأضرار.»

«أنت على حق. سأحجز غرفة في فندق لهذه الليلة ثم أبحث غداً عن مكان ملائم لأقامتنا.»

«ولماذا كل هذا التعب؟ عندي في منزل غراتون كثير من الغرف التي لا أستعملها.»

لعبت الصدمة من هذا العرض برأسها. «هل تعني أن أنتقل للإقامة معك؟»

عيون روايات منتديات

نظرة أدريان القاسية اخترقت أعماقها. «ليس بالمعنى المجازي. ولكن أنتما على الرحب والسعة، يمكنكما استعمال غرف النوم الإضافية، وسوف يجنبك ذلك متاعب انقطاع سام عن المدرسة.»

كانت جيسي تريد أن تبرهن لنفسها أن علاقتها بأدريان قد انتهت إلى غير رجعة، وهذا الانتقال للإقامة عند أدريان سيكون امتحاناً قاسياً لإرادتها، لم تساوم على حصوله. ولا يمكنها رفض منطق أدريان. «حسناً.» قالت موافقة. ثم تذكرت أن سام ليس معها هذه الليلة.

«ربما يجب أن أبقى في المنزل الليلة، وعندما يعود سام غداً، سنأتي إليك.» اقترحت جيسي.

ظهر الغضب في عينيه الشهابيتين واللتين لمعتا مثل خيوط الذهب. «هل أنتِ مجنونة، البيت غير آمن. من يدري كم من الأضرار الأخرى سببت العاصفة ومتى سينهار جدار آخر؟»

أذهلها حنقه، واستسلمت لإرادته من دون أي جدال آخر. وضبت الملابس والأشياء الخاصة بها وبابنها سام، فيما وقف أدريان ينتظرها.

وبسبب تسارع الأحداث حولها، وجدت جيسي نفسها غير قادرة على التنفس. منذ لحظات فقط كانت فكرة العمل لدى أدريان تنذرها بالخطر. والآن هي بالفعل تنتقل للعيش معه في بيته، صححت جيسي ذلك في سرها ففي هذه المرحلة، من المهم جداً الفصل بين أن تعيش معه وبين أن تقيم في بيته.

«هل هذا كل شيء؟» سألها أدريان مشيراً إلى أمتعتها.

أكسبها السفر المتكرر في عملها عادة توضيب أمتعتها

بسرعة. أغلقت الحقيبة بخبطة واحدة. «أعتقد أن هذا يكفي. قد أستطيع العودة إلى هنا إذا احتجت إلى شيء آخر.»

«إذاً، هيا لنخرج من هنا، بحق السماء.»

شعرت جيسي بعدم الإرتياح لنفاد صبره. «هل أسبب لك إزعاجاً؟»

أمسك أدريان بمعصمها بقوة. «سنتكلم عن ذلك فيما بعد. هيا نذهب.»

اختنقت وهي تحاول كتم غيظها، ولكنها سمحت له بجرها خارج الغرفة بيد، ويحمل حقيبة الأمتعة باليد الأخرى وكأنها خفيفة كالريشة.

تركها في الخارج. «سأجلب حقيبة سام، انتظري هنا.»

عاد بعد لحظات وبيده حقيبة سام الصغيرة التي حوت ملابسه وكتبه وألعابه.

«شكراً لله، لقد جلبت معك هندسايت، قالت جيسي عندما شاهدت أدريان خارجاً ومتابطاً الأرنب الأزرق اللون.

نظر اليها وغمز بعينيه، والحيرة بادية على وجهه. «هندسايت؟»

ضحكت جيسي: «أعلم أن الإسم سخيف، لقد حاولت تسميته فلافي، ولكن سام أصر على اختيار هذا الإسم. لأنه سمعني إحدى المرات أقول، لولا الهندسايت، لما وصلت الأرانب إلى أوستراليا، قط.»

رفع أدريان اللعبة الأرنب من أذنه الساتاني. «إذاً هذا هو الحيوان الذي يتسبب في جرف التربة، لقد كنت أتساءل من قبل؟»

رافقهما الصمت وهما يعبران فوق الحطام الذي انتشر

على حديقتها، ثم استادرا إلى طريق السيارات الفرعي باتجاه منتزه غراتون.

«سأرسل أحد العمال كي يضع الواحاً من الخشب حول منزلك.» قال لها أدريان عندما أصبحا داخل منزله، بعيداً عن الخطر.

«خلال ذلك، سأطلب العمة درو على الهاتف وأخبرها بما حدث.» وأضافت وكأنها تجيب على سؤال لم يُسأل: «يوجد عندها جهاز لتلقي وتسجيل المكالمات، عندما لا تكون موجودة في البيت...»

انتهت جيسي من طلب المكالمة وتسجيل رسالة إلى جو على الجهاز، وضحكت: «إن الحديث المسجل على الجهاز الذي يستقبل المكالمات كان بصوت الممثل سيلفستر ستالوني. الرسالة تهدد بأن يرسل رامبو كي يضرب أي شخص يتصل ولا يترك رسالة على الآلة، ضرباً مبرحاً يطفيء النور في عينيه.»

ابتسم أدريان: «لا عجب إذاً، في أن يحبها سام، يبدو لي انها سيدة رائعة، يجب أن أتعرف عليها قريباً.»

وعاودها الإنذار بالخطر في رأسها. إذا تعرفا على بعض، لن ينادي أدريان جو بالعمة درو، وهكذا تنتهي كذبتها الغالية. تمتمت بشيء غير مفهوم.

سلة الإفطار التي ذهبت معظم محتوياتها، كانت لا تزال على طاولة المطبخ، وقد أخرج أدريان منها زجاجة الشراب. «هل تريدين قليلاً منه؟»

«نعم، أفضل ذلك. هل آخذ الغرفة التي شغلتها الليلة الماضية؟»

«لقد وضعت حقيبتك في غرفتي، لأن الغرفة التي أقمت فيها ليلة البارحة، صغيرة بالنسبة لإقامة طويلة.»

أيقظت، عبارته الأخيرة، الصراع العاطفي في داخلها ووترت أعصابها، وفي الثواني القليلة التي تلت، أحست جيسي برغبة مجنونة امتلكت عليها مشاعرها، بأن توافق. بدلاً من ذلك قالت: «أفضل الغرفة الصغيرة.»

«لقد جاء طلبك هذا متأخراً، لقد نقلت حوائجي لتلك الغرفة.» ولاحظ النظرة المتوحشة التي كانت ترمقه بها. «هل ظننت... هل ظننت، أني كنت أعني، أن ننام معاً في الغرفة نفسها؟» أكدت جيسي شكوكه باحمرار خديها الشديد. «جيسيكا، أنا أدرك تماماً ما هو شعورك نحوي الآن. وليست لدي النية كي أستغل وضعك الحالي لأي شيء.» قبض يديه وفتحهما عدة مرات دلالة على الإحباط الذي ناله منها. «والعيش في الأدغال لم يفقدني إنسانيتي وتعدني.»

خجلت جيسي من ظنونها الخاطئة، ولامت ردة فعل جسدها التي تستبق تفكيرها السليم وهمست: «أعرف ذلك، أنا آسفة.»

قبل أدريان اعتذارها بهزة من رأسه، وقادها إلى غرفة النوم الرئيسية التي كانت قد دخلتها مرة أو مرتين من قبل، في زيارة لسوزان عندما كانت مريضة.

«إنك لم تغير شيئاً في هذه الغرفة، أنا سعيدة لذلك.» قالت جيسي لأدريان.

«لا توجد عندي النية لذلك، إلا إذا ارتأيت خلاف ذلك. وأعني بذلك أنك حرة التصرف في ما ترتئين.»

تفحصت الغرفة بعيني الخبير. «لا، ليس هنا، ليس بإمكاني تحسينها، إنها غرفة مثالية الذوق.»

هز أدريان رأسه موافقاً، وأسند يده على رأس تمثال الفرصان الأسود الموشح بالذهب: هذه الغرفة تذكرني بديكور مسرحية تاجر البندقية.

«أو، روميو وجولييت.»

«حبي الوحيد انبثق من كرهي الوحيد، رأيت مبكراً، ما لا اعرف، وما عرفته جاء متأخراً.» سرد أدريان هذه الأبيات من مسرحية شكسبير.

حركت هذه الأبيات من الشعر الرقيق مشاعر جيسي، ولكن عندما نظرت إلى الأعلى، رأت أدريان على وشك الذهاب. «سأتركك الآن كي توضبي حوائجك، وبعد ذلك نتكلم.»

عندما انضمت جيسي إلى أدريان في غرفة الطعام، وجدته واقفاً بين مختلف المواد التي سوف تستعمل في تجديد المنزل. ورأت الطاولة الأثرية والكراسي مغطاة بالقماش لمنع الغبار عنها، والسجاد العجمي مطوياً على بعض، وبانت الأرضية الخشبية الممكن تلميعها وإعادة رونقها.

لاحظ أدريان نظرتها إلى الأرضية. «يبدو أن أفكارنا متشابهة.»

كان من المستحيل أن لا تضحك. «كيف تعرف ما أفكر؟»

«لم يكن باستطاعتك، قط، إخفاء مشاعرك عني يا جيسيكا.»

أذهلتها المفاجأة وحدقت إليه بعينيها الواسعتين. لقد

نسيت أو تناست مقدرة أدريان على قراءة أفكارها. إن قبول دعوته للإقامة المؤقتة في منزله هو غلطة. فهو لن يحتاج إلى وقت طويل قبل أن يكتشف أنه ليس هناك من رجل آخر في حياتها. لأنها لم تلتق بعد رجلاً استطاع أن يضيء شمعه لأدريان. وعندما يكتشف ذلك، ستكون خطوته التالية ـ معرفة والد سام ـ سهلة جداً.

اقترب منها قليلاً. «سأعطيك مثلاً، أنت تفكرين الآن في ما إذا كنت على صواب بقبولك دعوتي للإقامة هنا. وأكرر لك، لا شيء يدعوك إلى القلق.»

مرر أدريان يده على وجه جيسي التي تنفست بصعوبة. «أهذا ما تدعوه لا شيء؟»

«لم تكوني في ما مضى بهذا النفور مني.» ذكرها أدريان بصوت جاف.

«لقد كان وضعنا مختلفاً في الماضي.» دافعت جيسي عن نفسها.

«وما وجه الإختلاف الآن؟»

ما هذا الذي تفعله؟ لقد تركها كل هذه السنوات الطويلة، تشعر بالوحدة. ولا ضمانات لها. إن ذلك لن يتكرر ثانية. ومن الجنون أن تترك العنان لعواطفها. ألم تتعلم درسها بعد؟

أحس أدريان بتوتر أعصابها ورمقها والحيرة تبدو عليه. «أنت ما زلت ترغبين بي، أليس كذلك يا جيسيكا؟»

«من الصعب عليّ أن أنكر ذلك، أتظن اني أستطيع ذلك؟» وضوح ردها بان على مجمل تعابير وجهها.

«إذاً، لماذا تتمنعين؟»

حركت يديها في الهواء. «أنت... هذا... الذي تقوم به... كله غلط!»

«بالنسبة لي لم أشعر انه غلط.» سار أدريان إلى خزانة الأواني الصينية ورفع عنها الغطاء ورماه جانباً، ثم أخذ من داخلها زجاجة شراب وكأسين بيد مرتعشة.

هزت جيسي رأسها وكتفها بحركة، رافضة الشراب الذي قدمه لها، كأنها تقول: «إشرب أنت إذا شئت.» وضع أدريان الكأس الذي قدمه لها على الطاولة، وبدأ يعب الشراب من كأسه. «أنا لا أفهمك. تقولين إن علاقتك مع جو قد انتهت، ومع ذلك ترفضين إعطائي فرصة. هل السبب هو ما قلته عن سام؟»

«لقد اتهمتني بالخيانة.» ذكرته جيسي محذرة.

«كانت علاقتنا قد ساءت، وأنا أتحمل جزءاً من هذه المسؤولية. لو لم تعتقدي أن زواجنا قد انتهى، لما ارتبطت مع رجل آخر.»

أمسك بذقنها ورفع رأسها إلى الأعلى، يبادلها النظر ويقول بصراحة: «لن أدّعي أني سعيد بما فعلته، يا جيسيكا. ولا يوجد رجل يسمح لنفسه بذلك. ولكن، من دون شك، كنت يائسة إلى درجة أن تبحثي عن السعادة في مكان آخر.»

يائسة جداً، على الأقل، هذا صحيح. أومأت برأسها وهي تشعر أنها يائسة: «نعم، كنت يائسة جداً.»

«ربما لم يفت بعد الوقت علينا. وبما أني لن أتسلق الجبال ثانية، ولن أزحف فوق الجليد القطبي، فربما يجب أن نعطي نفسينا فرصة ثانية ربما ننجح هذه المرة.»

الأمل الذي انتعش داخل جيسي كان لذيذاً لدرجة الألم.

ابتلعت ريقها بتقلصات. لقد قال الشيء الوحيد الذي انتظرت سماعه طويلاً، الشيء الوحيد الذي يفتح الطريق أمام الفرصة الثانية. هل تستطيع أن تثق به؟

«أنا أعرف أن مثل هذا القرار يحتاج إلى وقت.» قال أدريان وقد أحس بحيرتها: «اعملي في مشروعي في الوقت الحاضر، من دون ارتباطات أخرى، ولن أطلب منك شيئاً أنت غير مستعدة لتقديمه. هل هذا يرضيك؟»

«أجل، هذا يرضيني.» خنقت العواطف صوت جيسي حتى ما كاد مسموعاً، ولكن أدريان سمعها وأومأ برأسه، ثم قدم لها كأس الشراب، وفي هذه المرة أخذته من يده، وبصمت شربت نخب الأمل الجديد.

كانت جيسي، بعد مضي أسبوع، لا تزال تشعر بالذهول كلما استيقظت ووجدت نفسها في منزل غراتون، تقيم على الطرف الآخر مما دعته جو، جدار أدريان. لم ينكث أدريان بوعده لها بأن لا يقربها، وعملا جنباً إلى جنب في تجديد المنزل كلما وجد أدريان متسعاً في وقته الموزع بين التأليف والاشراف على المسلسل التلفزيوني.

انتهيا بوقت قصير، تجديد غرفة المكتبة وغرفة الطعام الرئيسية. وبدتا بعد إحاطة الجدران بخشب الأرز وكأن عمرهما مئة سنة. وتناسقت أرضية الغرفتين مع السجاد الذي كان قد جمعه أدريان في رحلاته.

«هذا المكان أصبح رائعاً، ستحبه سوزان عندما تراه.» قالت جيسي له، عندما انتهيا من اللمسات الأخيرة في غرفة الطعام.

غُطيت الجدران، بورق من اللون الفضي، المقلم بمخمل من اللون القرمزي المتزاوج مع لون الستائر الرمادي، مما جعل تأثيرها مذهلاً.

«كانت تريد دائماً تجديد المنزل.» وافق أدريان على ما قالته جيسي. «ولكنها لم تجد متسعاً من الوقت بسبب واجباتها الإجتماعية ونشاطاتها الخيرية.»

«برغم أسبابها الوجيهة، اعتقد أن السبب الحقيقي في عدم تجديدها المنزل، هو انها لا تريد أن تفرط بأشيائها التي تراكمت عبر السنين. المنزل يبدو الآن جديداً مثل اليوم الذي دخلت سوزان فيه هذا المنزل.»

كانت سوزان أول من وافق على كلامها، عندما وقت جيسي بوعدها وأخذت سام، الذي كان يعتبر اللورد مارك بمثابة جده، لزيارتهما ويطير من الفرح كلما قام بزيارتهما.

«عندي الكثير من الأخبار.» قال سام وهو يشعر بالأهمية أصغى اللورد مارك، باهتمام، إلى سام، ابن الست سنوات وهو يشرح له مغامرته في الكهف في الأسبوع الفائت، وكيف صنع جهاز مراقبة الطقس بمساعدة أدريان.

غمزت سوزان، من وراء ظهر سام وقالت: «يبدو أن للعمة درو منافساً على عواطف سام.»

«هذا ما أظنه.» شعرت جيسي بخيبة في قلبها. فقد كان صحيحاً، ازدياد تعلق سام بأدريان. كان الشعور متبادلاً لأنها لاحظت أن أدريان يصرف وقتاً طويلاً مع سام برغم مشاغله. وقد صمم سام، في الوقت الحاضر، أن يصبح عالماً بأحوال المناخ، مثل الدكتور كول.

رمقتها سوزان بنظرة متفهمة، ولكنها لم تستطرد في الموضوع. «كيف وجد سام محيطه الجديد؟» سألتها.

إن سام يحب أي مكان يكون فيه مع أدريان، ولكن جيسي شعرت أنه من الحكمة أن لا تقول ذلك. «إنه يحب الأماكن الفسيحة، فهي تتيح له مجالاً أكبر للعب.» أجابت جيسي.

ظهر القلق على وجه سوزان المتجعد وقالت: «أنت لن تسمحي له بالإقتراب من الجدول، أليس كذلك؟»

«هو يعرف، أن عليه، أن يبقى على مرمى النظر من البيت.» أكدت جيسي لسوزان: «كثير من الأولاد، في هذه الأنحاء يلعبون قرب الجدول، منجذبين إلى المثالي، لإطلاق العنان لمخيلاتهم الفتية، التي تأخذهم مرة إلى الغرب الأميركي القديم ومرة إلى سطح كوكب غامض، وهكذا. ولكن هذا المكان، حتماً، لا يناسب أولاد الست سنوات مثل سام.»

لمست سوزان يد جيسي. «لا أدري لماذا أقلق، فأنت أم واعية ومثالية، يا عزيزتي.»

رفع سام رأسه وقال: «وهي توقفت عن الذهاب إلى العمل، أيضاً.»

ضحكت جيسي قائلة: «ماذا تعني يا حبيبي، هل عدم ذهابي إلى العمل هو شيء جيد أم شيء سيئ؟»

«إنه شيء جيد.» أجاب سام بجدية: «فهذا يعني أنك أم حقيقية.»

«ولكني، أم مثالية دائماً.» أحتجّت جيسي وهي تشعر بشيء من القلق. لم يعترض سام على عملها من قبل، أو هي ظنت ذلك!

«لا، لم تكوني كذلك. ولم تكوني تحضرين لي البسكويت والحليب حين أعود من المدرسة!»

«ولكن العمة درو كانت تفعل ذلك، أليس هذا صحيحاً؟»

«نعم، ولكنها أم نيل، وليست أمي.»

لقد أوضح سام موقفه. وهي لم تظن يوماً، أن سام كان يستاء من غيابها المتكرر في العمل.

أحست سوزان بما يعتمل في قلب جيسي. «لا تأخذي على كلامه أكثر من اللازم، فقبل وقت ليس ببعيد ستسمعينه يشكو من كثرة تواجدك معه وتدخلك في حياته.»

«أنت على حق.» قالت جيسي وهي تشعر بثقل في قلبها لأن سام كان يشعر بأنها اهملته في السابق. وشعرت بالإرتياح عندما حان وقت ذهابها.

«سيأخذك دكتور كول لزيارة دار التلفزة، بعد الظهر.» قال لها سام فيما كانا يهمان بمغادرة آل غراتون.

بدا الاهتمام على وجه اللورد مارك وقال: «هل ستصبح نجماً تلفازياً؟»

ظهر القرف على وجه سام. «بالطبع لا. الأبطال فقط يظهرون على شاشة التلفاز. نحن ذاهبان لمشاهدة الدكتور كول وهو يعمل في برنامجه.»

ابتسمت سوزان وهي تغمز من قناته: «هل هذا يجعل من الدكتور كول بطلاً؟»

بدا على سام التفكير العميق، من دون أن يشعر بتهكم سوزان. «لا أعرف، إنه لا يستطيع الطيران، أو أي شيء مشابه لذلك، ولكنه يقوم بأشياء مدهشة.»

أنت تستطيع أن تقول ذلك ثانية، فكرت جيسي فيما كانت

تقود السيارة. دكتور كول هو اليوم بطل. غداً من يعرف؟

وجدت جيسي أن أدريان قد ترك اسميهما عند موظف الإستقبال، عندما وصلا إلى دار التلفزة. ولمعت عينا سام وهو يشاهد الأجهزة المختلفة التي تحيط به في المحطة.

«هل سنرى بعض الأبطال، هنا؟» سأل لمه.

كان حماس سام معدياً، جيسي لم تزر الاستديوهات من قبل، حتى عندما كان أدريان يعمل في دائرة الأحوال الجوية في المحطة. وفغرت فاها تعجباً لمرأى كل هذه الأجهزة. «ستكون هناك بعض المفاجآت.» أجابت على سؤال سام باختصار.

قادهما أحد الموظفين، عبر دهاليز المحطة الفاصلة بين موضع تصوير وآخر، وحيث كانت الكابلات الكهربائية ممتدة تحت أقدامهما. «هذا موقع تصوير حافة الحقيقة.» قالت الموظفة الشابة التي استقبلتهما حين وصولهما.

«إن ذلك رائع.» تنفس سام بصعوبة، وقد أثارته رؤية الأضواء الساطعة المسلطة على قمة جبل اصطناعية والخلفية الممتدة إلى ما لا نهاية خلف المذيع ومقدم البرنامج.

وضعت جيسي اصبعاً على شفتيها وقالت: «صه، يا عزيزي.»

«لا بأس بذلك، انهم لم يبدأوا في التسجيل.» قالت لها الموظفة: «سألفت انتباهك عندما يحين وقت السكوت.»

قادتهما إلى صف من المقاعد في زاوية الموقع، نكرتها بقاعة المحاضرات في الجامعة. جلسا في

الظلام، وقد زاغت أعينهما بسبب الأضواء الساطعة أمامهما.

تنقلت عينا سام في إنحاء موقع التصوير، فيما اكتفت جيسي بالتحديق في الرجل الذي يقف في منتصف الموقع، وأضافت عليه الأضواء سحراً خاصاً، مما جعل قلبها يقفز لمرآه. كان أدريان يرتدي بدلة فُصّلت خصيصاً، كي يظهر بها في البرنامج، وجعلت تكوين جسمه الرياضي أشد بروزاً.

سنحت لجيسي الفرصة، ولأول مرة منذ عودة أدريان، كي تراقبه طويلاً وملياً وهو يقوم بعمله.

كان يعتريها شعور غير طبيعي. لقد اعتقدت طول هذه السنوات انها فقدته. والآن قد عاد، وهناك أمل في أن تعود المياه إلى مجاريها بينهما. وهذا أكثر مما كانت تحلم به. ولكنها شعرت بالاختناق عندما فكّرت بأنه من المحتمل أن يضيع هذا الأمل.

أشار أدريان لها بأن تنضم إليه عندما رآها. «اجلس هنا وراقب حقيبة الماما.» قالت لسام.

أمسك سام حقيبتها بشدة وقد شعر بأهمية هذه المسؤولية. «سأعود فوراً.»

تقدمت نحوه وهي تحاول أن لا تتعثر بالكابلات الممدودة على الأرض، وحجبت بيدها الأنوار عن عينيها. أمسك أدريان بذراعها وقادها إلى منتصف الموقع. «جيسي كول، هذا توم هولاند، منتج البرنامج.» قدم جيسي. ارتفع حاجبا المنتج، عندما سمع اسمها، ولكنه لم يعلق على شيء. مما تعرفه عن العلاقات في الوسط الفني، لا تبدو علاقاتها مع أدريان شيئاً غير عادي.

«أهلاً بك إلى بيت المجانين!» قال لها توم هولاند، وهو يصافحها.

«ما الذي تفعلونه الآن؟» سألت جيسي.

نقل المنتج نظره قليلاً. «نحن ننتظر الإتصال مع القمر الصناعي الذي سينقل إلينا سباق زحافات الكلاب من ألاسكا.» قال لها: «أدريان سيقوم باجراء مقابلات مع المتسابقين في حلقة الليلة.»

«يبدو هذا مثيراً.»

«هذا شيء مختلف عما اعتدت عليه يا أدريان، أليس كذلك؟» قال أحد المصورين.

ابتسم أدريان بتودد. «لماذا هو مختلف؟»

«الجلوس هنا، في الجو الحميم للاستديو، ومشاهدة الآخرين يقومون بالمخاطر.» تابع المصور كلامه: «لقد كنت أعتقد انك واحداً منهم وتتحرق للخروج من هنا.»

ضحك أدريان ولكن بدا على وجهة الانفعال، واشتمت جيسي رائحة الخطر قليلاً. «ولكن أليس عمله هنا له نفس الأهمية؟» سألت وهي تسمع نبرة غريبة في صوتها.

«شكراً لدفاعك عني، ولكني أستطيع معالجة هذا الأمر بنفسي.» أجاب أدريان باستياء. ماذا فعلت غير أنها أرادت أن تؤكد له أن دوره هنا بأهمية الرحلات؟ أم هو لا يعتقد ذلك؟ هل هو يلعب على مخاوفها؟ وضعت يدها عفوياً حول عنقها وكأنها تدرأ عنها خطراً ما.

كان المنتج يصغي إلى سماعتي الأذن المعلقتين على رأسه، ثم رفع إبهامه مشيراً إلى لوحة الوقت المعلقة على

الجدار. «الاتصال بالقمر الصناعي سيتم في خمس دقائق.» أخبر مساعديه.

كان التعبير على وجه أدريان لا يزال بارداً عندما لمست ذراعه وتمنت له النجاح. «هل ننتظرك بعد التصوير؟» سألته.

«لا داع لذلك. التسجيل سيأخذ عدة ساعات، وبعد ذلك عندي اجتماع مع فريق الإنتاج.»

«حسناً.» شعرت جيسي بالوحدة، كما لم تشعر من قبل، وهي تتخذ مقعدها لتراقب التصوير. وجدت سام يتكلم بسعادة مع داڤينا وتقلصت عضلاتها. «مرحباً، يا آنسة داڤيز.»

«داڤينا، من فضلك.» ابتسامة المرأة كانت خلابة ومخلصة.

شعرت جيسي بالخجل من ردة فعلها الفورية، وابتسمت لها. «أشكرك على مجالستك سام.»

«لا عليك، لقد كنت أشرح له، كيف نعمل هنا. كم يبلغ عمره؟ ثمانية أم تسعة؟»

«ست سنوات.» أجابت جيسي، وقد ملأها الزهو رغماً عنها. رأت الدهشة على وجه داڤينا: «إنه أذكى من عمره.»

«تستطيعين قول ذلك ثانية.» احتضنت سام، الذي بدت عليه الحيرة. «إنه يتصرف وكأنه فهم كل ما أخبرته به.»

نظر سام إليها بقرف. «لقد فهمت كل شيء. ولكنك مخطئة بالنسبة للعاملين في الغرفة العليا. إنهم ليسوا ملائكة. انها غرفة المراقبة، والعاملون فيها يخبرون العاملين تحت ما يجب أن يفعلوا. لقد أخبرني بذلك الدكتور كول.»

تقبلت داڤينا نقد سام لها برحابة صدر، وأحست جيسي بأن شعورها البارد نحو داڤينا يتبدل.

«وداعاً يا برنامج شارع السمك، وأهلاً بالبرنامج العلمي.» قالت داڤينا بجدية: «لن أحاول مرة أخرى، تدليعك، هذا وعد مني.»

ولكن سام لم يصغ اليها، فقد شدت انتباهه الحركة في موقع التصوير، فيما كان أدريان يدقق في بعض الأوراق. ولكن الأصوات داخل الجدران العازلة، جعلت من الصعب عليهما سماع ما يقول.

«هل أنت مشتركة في هذا البرنامج؟» سألت جيسي داڤينا داڤيز.

هزت المرأة الأخرى رأسها نفياً: «لا، هذا البرنامج بين أدريان وما يرسله القمر الصناعي فقط. هذه الحلقة ستظهر هناك في ألاسكا. برنامج المراقب، وهذا لمعلومات سام، هو الذي سأقدمه بعد برنامج أدريان.»

«لقد أخذ هذا البرنامج، وقتاً طويلاً منك.» قالت جيسي بحنو.

«هذا بالتأكيد. لقد جئت إلى الأستوديو في الخامسة صباحاً.» قالت داڤينا وهي تتصنع الأسى، ثم بدا على وجهها الأنشراح: «ولكني، برغم تعبي، أنا مصممة على الذهاب إلى حفلة الليلة.»

كلمة حفلة، هي المفضلة لدى سام بعد كلمة كهف، وقد أثار ذكرها انتباهه. «هل هي حفلة عيد ميلاد أحد ما؟»

«هي بالفعل ذلك. إنه عيد ميلاد المنتج. هل ستبقين للحفلة؟»

لقد أوضح لها أدريان أنه لا يريد منها الإنتظار، وقد عرفت الآن لماذا. لأنه سيكون منشغلاً. ولعدة ثوان فكرت فيما إذا كانت على حق في رفضها مقاربته منذ انتقالها إلى بيت غراتون. هل كان ذلك هو السبب كي يفضل مرافقة داڤينا؟ وبالنسبة لأدريان، لا يحق لها الشكوى والتذمر من ذلك، لأنه يعتقد أنها ستكون برفقة جو.

الفصل السابع

العاشرة.. الحادية عشرة. الثانية عشرة. الواحدة.

الساعة القديمة المعلقة على الجدار أشارت إلى مرور الوقت متتابعاً بدقة. لماذا عصي عليها النوم؟ طوت جيسي الوسادة ووضعت رأسها في الطية، ولكن الخلاص رفض أن يأتيها. قالت لنفسها، إنه لغباء مني، ومع ذلك لم تستطع منع نفسها من عد الساعات وهي تنتظر سماع وقع خطوات أدريان على الدرج.

لم تر أي أثر لأدريان في الصباح، عندما نزلت إلى المطبخ، ولكنها رأت المذكرة التي تركها لها، وفيها يقول إنه تلقى مخابرة مستعجلة من الأستديو ليذهب إلى العمل، وسيراها فيما بعد. لماذا أزعج نفسه، أساساً، بالقدوم إلى البيت؟

«لماذا أنت غاضبة يا أماه؟» سألها سام فيما كانت تحضر طعام الإفطار.

«أنا لست غاضبة!» فيما كانت تضع بشدة وعاء آخر على موقد الغاز. سؤال جيد. لما كل هذا الاهتمام بأدريان؟ وما دخلها، إن بقي خارج البيت معظم ساعات الليل يحتفل مع داڤينا داڤيز؟ هذا الشيء، بالفعل لا يخصها.

«أخبريني عن أبي يا أمي.»

شعرت جيسي بهبوط في معنوياتها. لماذا هو الآن، يسأل سؤالاً كهذا؟ فلما كان أدريان غائباً، كانت تتكلم عنه

عيون روايات منتديات

بصيغة الماضي. أما الآن فهي لا تستطيع ذلك من دون أن تكذب على ابنها. «كيف تتصور أباك يا سام؟» سألته.

«أعتقد أنه يشبه الدكتور كول.» قال بعد تفكير فيما كان يخلط الحبوب المسلوقة في صحنه ببعضها. أتصوره ذكياً جداً، ويقوم بمغامرات مسلية حول العالم.»

أحست جيسي أن الأرض قد انشقت تحت قدميها. وشعرت بالجفاف في حلقها. هل يمكن لسام أن يحس بالعلاقة الأبوية بينه وبين أدريان؟ وإذا كان كذلك، فكيف يحس أدريان؟ سمعت بوق سيارة في الخارج. «هذا صديقك، دانيال، لقد أتى ليأخذك معه إلى المدرسة.» قالت جيسي.

رمقها معاتباً: «إنها أم دانيال، دانيال لا يستطيع قيادة السيارة.» بان على وجهه التحسب، وأضاف: «أرجو أن لا تنسي وعدك بأخذي إلى النزهة عند العصر، هل ستفعلين؟»

وضعت جيسي يدها على قلبها، علامة على أن وعدها هو كلمة شرف: «عندما تعود إلى المنزل ساكون قد جهزت كل شيء للذهاب في نزهة، هيّا، اختفِ من وجهي الآن.»

في دقائق، أخذ سام مكانه داخل السيارة إلى جانب صديقه دانيال، وربط نفسه بحزام الأمان، وتلهى بالحديث مع دانيال تاركاً لأم دانيال مهمة إلقاء التحية على جيسي مودعة.

رجعت جيسي إلى داخل المنزل، وكانت تشعر بأنها قد فقدت كل حيوية ونشاط. وحضرت لنفسها فنجاناً من القهوة. إن كثرة أسئلة سام عن والده واقترابه من الحقيقة، جعلا من الواضح على جيسي أن تقرر متى ستخبر سام عن والده، وفي القريب العاجل، لأن أسئلته ستصبح محرجة

أكثر. ولا يتخلّى سام عن الإستفهام عن أي شيء عندما يصبح هذا الشيء جزءًا من تفكيره.

«ارتاحي، قد يمضي وقت طويل قبل أن يسأل ثانية.» أكدت جو عندما اتصلت بصديقتها البائسة.

«لم يكن من المستحسن أبداً أن ننتقل للإقامة في منزله.» قالت جيسي.

«إن بيتك غير صالح للسكن، أليس كذلك؟ ماذا تستطيعين أن تفعلي غير ذلك؟»

«أحد العمال قال لي إن إصلاح المنزل يحتاج إلى أسبوعين أو ثلاثة لأنهم وجدوا شقوقاً في الأساس. أوه، يا جو، لقد تعقدت الأمور كثيراً. أكاد أموت من الخوف. في كل مرة يتكلم فيها سام عنك وعن نيل، وينسى ويناديك باسمك.»

قالت جو، بعد صمت طويل: «ربما حان الوقت لتخبري أدريان بالحقيقة.»

هزت جيسي رأسها بتوتر، وقد امتلأ قلبها بالخوف من هذا الإحتمال، قبل أن تلاحظ أنها تتكلم على الهاتف وجو لا تستطيع رؤيتها. فقالت: «أنت تعرفين بأني لا أستطيع القيام بهذه المجازفة الكبيرة.»

«قد تكون ردة فعل أدريان منطقية ومعقولة أكثر مما تتصورين، أنت نفسك قد قلت إنه تغير كثيراً عما قبل.»

«إنه أكثر استقراراً الآن. أنا لا أعرف. كم أتمنى، يا جو، أن أجد وسيلة لأتأكد من ذلك.»

«هنالك وسيلة ـ إنها تدعى الثقة.» قالت جو بلطف. لقد سمعت أنك تصنعين العجائب، حالياً في منتزه غراتون.»

«يجب أن تأتي بنفسك وتشاهدي ما فعلته.» قالت جيسي وهي تلوي شريط الهاتف بين أصابعها.

أطلقت صديقتها ضحكة عالية وقالت: «أنا أعرف متى يجب أن آتي، ـ عندما لا يكون أدريان في الجوار.» تركت جو الخط معلقاً، وسمعت جيسي حواراً في الفناء. ولما عادت جو إلى الخط قالت: «يجب أن أذهب. سيبدأ درس الموسيقى بعد عشر دقائق.»

«سنلتقي قريباً.» وعدت جيسي. إنها مدينة كثيراً لصديقتها، ولا يجوز أن تترك مشكلاتها مع أدريان تفصلها عنها.

فيما بعد، وبينما كانت جيسي تحضر سلة النزهة، كما وعدت سام، جال بخاطرها استنتاج. ربما الحل يكون في أن تنتقل من منزل غراتون، بعيداً عن أدريان ولو عنى ذلك استئجار مكان للإقامة حتى يصبح منزلها صالحاً للسكن.

هذا الإستنتاج ملأها بالضيق والقنوط.

زودتها مرافقة سام إلى النزهة بشيء من الراحة التي تحتاج إليها. وكعادته عندما يعود من المدرسة، كان سام مليئاً بالنشاط، يركض خلف البيت أمامها، باتجاه الغابة حيث تبدأ، وتنتهي عند جدول ماء على مسافة ثلاثين متراً نزولاً.

«انتظرني عند حافة الجدول، هل سمعت؟» ناداته قبل أن يختفي عن نظرها.

«لقد سمعت. أراهنك على أني سأرى الكانغارو قبلك.» ناداها مجيباً.

إن منتزه غراتون هو بمثابة جنة للأولاد، شردت جيسي بأفكارها، وتبعت سام ببطء، حاملة سلة النزهة. لو قررت الإنتقال بعيداً عن هذا المكان فستفتقد العيش الحر الذي يوفره الوادي لهما. ويفتقدان أيضاً التنوع الكثير في النبات والحيوان الذي تمتلىء به هذه الأنحاء. ولشدة اختلاف الحياة بين الوادي والمدينة، يصعب على المرء تخيل هذا الوادي بعيداً عدة أميال فقط عن مدينة أدلايد.

لقد تشكلت تلال أدلايد بفعل انبثاق كتلة صخرية من على سطح البحر في حقبة ما قبل التاريخ. انهار قسم من هذه الكتلة وغطته المياه، مشكلاً خليج سبنسر وحوضاً من البحيرات المالحة، في الداخل بعيداً عن الشاطىء. القسم الآخر، ارتفع مشكلاً نتوءات عالية وأخاديد عميقة، حيث جرت جداول من الماء.

«تعالي، يا أمي.» ناداها سام وقد نفد صبره لتأخرها عليه بالوصول، فيما كان يقفز ويلعب على حافة أخدود.

مدت جيسي السجادة على الأرض الصخرية، ووضعت عليها الدجاج البارد، والخبز المحمص، والجبنة والفاكهة. هجم سام على الأكل ونسي كل شيء آخر.

بعد مضي عشر دقائق، سمعت جيسي صوتاً مألوفاً، أذهلها: «أرجو ألا تمانعي في انضمامي إليكما؟»

«أمي، إنه الدكتور كول ومعه هذه السيدة.» قال سام وفمه مليء بقطع الدجاج.

قالت جيسي مبتسمة بتصنع: «أهلاً. أنتما على الرحب والسعة ولكن الأكل لا يكفي أربعة أشخاص.»

«لقد عملت حسابي.» هز أدريان الكيس الذي يحمله.

«عندما رأيتكما تتجهان إلى هنا، جلبت المزيد من الأكل معي.»

أفسحت جيسي مكاناً لهما على السجادة، وتنهدت داڤينا بعمق دلالة على الانشراح الذي تحس به. وعندما رفعت وجهها لتواجه الشمس، لاحظت جيسي أن داڤينا كانت على أجمل صورة ممكنة، بفستانها المزهر وقرطي أذنيها المناسبين. بالمقارنة معها، شعرت جيسي بالنقص وهي ترتدي الجينز والقميص المطبع.

«إن هذا المكان متعة حقيقية ونعمة من الله، خاصة بعد التقوقع لعدة أيام في الاستديو.» قالت داڤينا.

أخرج أدريان من كيس الزوادة مزيداً من الجبنة والخبز، وزجاجة من الشراب المحلي الأبيض وقد تكثف بخار الماء عليها من برودتها، كالندى. ثم سحب، من داخل الكيس، ثلاثة كؤوس بلاستيكية. إنه لا ينسى شيئاً. «أرجو ألا يكون هناك من مانع في أن نشاركك النزهة؟» سألها أدريان.

لماذا لم يأت أدريان بمفرده؟ إن قضاء هذا الوقت الرائع معه كان سيكون مثالياً. اما وقد جلبها معه، فهي تشعر كأنها الدولاب الخامس الإضافي في السيارة. كان سام الشخص الوحيد الذي لم يعر اهتماماً لهذا الموقف، بل كان سعيداً لرؤية وصيه الجديد.

«بالطبع لا نمانع، أليس كذلك، يا أمي؟» قال سام لأدريان بكل براءة. «أريد أن تخبرني اليوم المزيد عن تشكيلات الغيوم.»

نظرت داڤينا إلى جيسي. «يبدو أن تخصص هذا اليوم سيكون ممتعاً. هل هما دائماً هكذا مع بعض؟»

نبرة داڤينا الدافئة جعلت جيسي تبتسم لها. «نعم، في العادة، هما كذلك. قد يصرفان ساعات وهما يناقشان المرتفعات والمنخفضات وفي ما بينهما.»

«ماذا حدث لـ هيا نلعب مدرسة؟» سألت داڤينا وهي ملوحة بعينيها.

«لقد لعبها حتى بلغ الثانية من عمره.» ثم تنكرت، وأضافت: «لقد كنت في الماضي أحد مقدمي هذه اللعبة، على التلفزيون أليس كذلك؟»

«اغفري لي خطاياي.» رفعت داڤينا يديها إلى مستوى الكتف وكفاها إلى الأسفل، وكأنها في وقفة دعاء، وأنشدت: «انا ابريق الشاي الصغير، قصير وسمين!»

لم تستطع جيسي تخيل داڤينا، قصيرة وسمينة، ولكنها ضحكت على الصورة التي رسمتها لنفسها. «لقد أحببت هذه الأغنية من برنامجك. لقد شعرت بكارثة عندما تحول اهتمام سام من هذا البرنامج إلى مسلسلات ما بعد سنة ٢٠٠٠.»

«لا غرابة في ذلك، لقد أخبرني أدريان عن ذكاء ابنك الفائق. في حفلة الليلة الماضية...»

أحست جيسي أن أدريان كان يعير أذناً لهما ويعطي انتباهاً كاملاً لحديثهما. «عما أنتما الاثنتان تثرثران؟» سأل وهو ينتصب جالساً.

اعترى جيسي إحساس بارد. فقد كان من الواضح أن أدريان لا يريد أن تبدأ داڤينا الحديث عن حفلة الأمس، والتي دامت حتى الواحدة بعد منتصف الليل. «لقد فهمت أن ليلة الأمس كانت اجتماع عمل وليس حفلة.» قالت بهدوء

خادع، فيما كان كل ما بداخلها يغلي. إن ما فعله أدريان هو شيء لا يخصها، ولكن لماذا تكذب على نفسها؟

اتسعت ابتسامة داڤينا. «الشبه الوحيد من ليلة الأمس، بين الإجتماع والحفلة، أنها عقدت في غرفة مجلس الإدارة. ألا توافقني الرأي، يا أدريان؟»

«لا أعتقد أن جيسي تهتم لتهريج العاملين في دار التلفزة.» ناور أدريان: «هل تريدين مزيداً من الدجاج؟»

نهضت داڤينا. «لا، شكراً، أنا ممتلئة سأمشي قليلاً كي أهضم ما أكلته. لن أغيب طويلاً.» ومشت بنشاط وخفة، مبتعدة عنهم.

خيم الصمت فيما بينهم، فيما كان سام يستكشف بيتاً للنمل مستعملاً غصناً رفيعاً ومديراً ظهره لهما. وداڤينا ابتعدت عن السمع. قال أدريان بتهذيب وهو يشعر بالحرج: «أظن أنك تتساءلين لماذا لم أخبرك عن الحفلة الليلة الماضية؟»

لعبت جيسي بكأس الشراب الفارغ. «هذا لا يخصني.»

«ولكنك منزعجة ولك الحق في أن تكوني كذلك.»

«أنا منزعجة، فقط، لأنك شعرت بالحاجة كي تكذب علي.» ذكرت جيسي المبرر الوحيد لانزعاجها وإحساسها بالخداع، الذي تستطيع قوله.

لوى أدريان قليلاً من العشب بين أصابعه. «بصراحة، لم يكن هناك كذب على الإطلاق. عندما أخبرتك أن هناك اجتماعاً للجنة الإنتاج بعد العرض، كنت مقتنعاً بأني أقول الحقيقة.»

وقعت نظرتها الحائرة على وجهه. «أنا لا أفهم.»

«لقد اتفقوا على أن يفاجئوا المنتج توم هولاند بهذه الحفلة.» وتذكرت جيسي أنها تعرفت على توم. «وبما أني كنت أعمل إلى جانبه طوال النهار لم يكن بوسع الآخرين إعلامي بخطتهم من غير أن يفضحوا مضمونها أمام المنتج.»

شعرت جيسي بارتفاع معنوياتها ولكنها تماسكت. «أنت لست مديناً لي بأي توضيح.» قالت وهي لا تزال على مكابرتها في إظهار عدم الاهتمام.

ولسبب ما، استاء أدريان، لسماع ذلك. «ألست منزعجة لعدم دعوتك إلى الحفلة؟»

عاودتها ذكرى الساعات الطويلة، والتي جافاها النوم خلالها تنتظر عودته إلى البيت، وشعرت بالغباء؛ أين ذهبت خطتها في أن تبرهن لنفسها أنه لم يعد يعني لها شيئاً؟ «أنا لا أهتم لا من قريب ولا من بعيد بالحفلة.» قالت جيسي بصراحة لا متناهية.

ليست المشكلة أن تكون غير مدعوة لمناسبة اجتماعية بل في تخيلها له يقضي هذه الساعات مع داڤينا داڤيز، وهذا يبرهن عن عدم قدرتها قطع الروابط العاطفية التي تشدها إليه.

وقف أدريان، ونفض فتات الطعام عن ملابسه. «يظهر أني شغلت بالي بلا سبب هيا بنا يا سام، إلى أعالي الصخور.»

«كن على حذر.» لم تعرف جيسي إلى من وجهت هذا التحذير، إلى أدريان أم إلى سام. وقررت أخيراً أن التحذير موجه لهما الإثنين. منظرهما معاً، كان

عبود للمقتبسات

جميلاً ومؤثراً، يمشيان يداً بيد على حافة الأخدود.

جمعت جيسي أغراض النزهة بتمهل، وتبعت دافينا ببطء إلى حيث وقفت تحدق، حالمة، إلى الوادي الممتد تحتها. وقد خجلت جيسي قليلاً من شعورها غير الودي تجاه دافينا، وقررت أن تصحح هذا الوضع.

«إن المنظر خلاب، أليس كذلك؟» سألت جيسي، وهزت دافينا رأسها موافقة.

وعلى الرغم من براءة اسم الجدول الصغير، كانت المياه عميقة وهادرة بفعل العواصف الأخيرة. والتصق الزبد الناتج عن سقوط مياه الشلال بالصخور.

«إلى أين، يكمل الجدول طريقه؟» سألت دافينا واضعة يداً فوق حاجبيها لتظلل عينيها من الشمس.

«هل ترين هذه الصخرة المعلقة؟» أشارت جيسي بأصبعها إلى منتصف الأخدود، حيث توجد فتحة بين الأشجار. «هناك تجري مياه الجدول إلى الوادي وتختفي تحت مغارة كبيرة من الصخور. إنها تذهب، من هناك، إلى باطن الأرض.»

«إنها تشبه ثعباناً أبيض وهو يختبىء داخل حفرته.» علقت دافينا: «على ما أظن، لا يصلح هذا المكان للسباحة؟»

جعل السؤال جيسي تنظر لا شعورياً إلى حيث سام لتتأكد من سلامة مكانه، ورأت أنه في أمان؛ يده ممسكة بيد أدريان ويقفان على حافة الشلال. «لا أعتقد أن المكان صالح للسباحة.» قالت جيسي. «متسلقو الجبال يحبون السباحة هنا، لأنهم يذهبون مع التيار إلى داخل الأرض، حيث يستكشفون الكهوف هناك.»

ارتجفت مفاصل دافينا خشية أن تلاقي هذه الهواية قبولاً، حتى ولو قليلاً. «لأني أعاني من عقدة الأماكن المغلقة.»

وافقت جيسي على كلام دافينا فيما كانت تتذكر كيف كان أدريان يستكشف هذه الكهوف، عندما كان الوادي ملكاً لآل غراتون. «هذه ليست فكرتي في قضاء وقت الراحة.» كانت ترتعد خوفاً كلما اختفى أدريان في باطن الأرض، من خلال الفتحة السوداء، متأكدة من أنه لن يخرج ثانية. «هيا نتمشى قليلاً.» قالت جيسي ومرادها أن تطرد هذه الذكريات من مخيلتها.

مشيتا على مهل تحت سجادة من الأغصان المتعانقة وفوق طريق عشبية، مهدتها حيوانات الكانغارو وهي ترعى. لم تلحظا أياً منها ولكن آثار قوائمها كانت في كل مكان.

«أنت محظوظة يا جيسي.» قالت دافينا بعد فترة.

بان على وجه جيسي الدهشة. «أنا؟ كيف؟»

تنهدت دافينا بعمق وأجابت: «لديك كل شيء ـ مهنتك وابنك وأدريان.»

«أنت تعرفين بلا شك، أن هناك نفوراً بيننا، أليس كذلك؟» اندفعت جيسي بالسؤال.

وقعت النظرة من عيني دافينا الزرقاوين اللتين تخترقان الأعماق بقوة، واللتين جعلتا منها مذيعة الأخبار الأولى، على جيسي. «ليس هذا ما أراه. أدريان كول لا يبدو عليه النفور، عندما يكون برفقتك.»

لا شك أن دافينا قد خلطت ما بين الشعور بالألفة والحب.

أقنعت جيسي نفسها. ومع ذلك، لم تستطع إيقاف الشعور بالسعادة الذي غمرها، بسبب ما قالته داڤينا وما لاحظته من أن داڤينا لا يمكن أن تكون مهتمة بأدريان بصفة شخصية. إنه فضول وحسب...

«إنني معجبة بنتائج عملك في البيت.» قالت داڤينا مفاجئة جيسي مرة ثانية بتوددها.

تكلمت جيسي بدفء وإخلاص واضحين: «شكراً لك. أنا أمضي وقتاً ممتعاً وأنا أعمل كي أعيد المكان إلى مجده الغابر. ولكن لن أحتكر التقرير كله. فالمصممون الأصليون جديرون بهذا التقدير أيضاً.»

«سيكون معظم التقدير لك، أنت تجعلين هذا البيت ذا الطراز القديم متناسقاً مع خطوط الديكور الحديث.» قالت داڤينا بحزم. «فليس من السهل دمج الطرازين، وقد حاولت فعل ذلك في منزلي وفشلت، على الرغم من أنه منزل جميل مبني على الطراز الفيكتوري ويقع على شرفة مطلة على المدينة.»

تناقشتا في جميع الاحتمالات التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الدمج، إلى أن رفعت داڤينا يديها مستسلمة. «لا فائدة. لا أستطيع تصور الإمكانيات كما تعلمين. أريد أن تكون مهمتك التالية: تصميم ديكور منزلي، بالطبع، بعد أن تنتهي من منتزه غراتون.»

لم يخطر ببال جيسي من قبل أن تصبح مهندسة ديكور وتزيين داخلي مستقلة. فكرة جديدة تماماً جعلت عينيها ترفان بشدة. «لا أعتقد أني مستعدة لتسلم أعمال جديدة، بعد منتزه غراتون.» قالت جيسي.

«لِمَ لا؟ ستكونين مستقلة تعملين بمفردك وبالأوقات التي تناسبك، وسأزكيك أيضاً عند عدد من أصدقائي ممن يودون التعاقد مع مهندس ديكور بعد أن تنتهي من منزلي.»

وأحست بالحماس يجري في عروقها. «ربما أستطيع القيام بهذا العمل.»

وضعت داڤينا يدها على كتف جيسي. «أنت فتاة ذكية. اعلميني عندما تصبحين جاهزة للبدء بالعمل في منزلي.»

أحست جيسي أنه من المستحيل أن لا تحب داڤينا. فكرة العمل لدى امرأة مشهورة مثلها كانت مثيرة بحد ذاتها، ستقدم إلى داڤينا أفضل ما يمكنها عمله باعتبارها صديقة. ولا يهم فيما بعد، إذا حصلت على عقود من أصدقائها أم لا.

تبخرت أحلامها عندما اندفع إليها سام بحماس القديس برنارد وقال: «ماما، خمني أين كنا؟»

«لا أعرف. أين؟»

«نزلنا، أنا والدكتور كول إلى مدخل النهر الباطني. إنه كهف هائل تتدفق المياه مباشرة إلى داخله.»

جمدت الصدمة جيسي في مكانها. ولاحظت أن الطين والعشب قد علقا بثيابه أثناء التسلق. «لا أريدك أن تقترب، بأي شكل من الأشكال من هذا الكهف.» قالت له غاضبة، ثم ألقت نظرها المتأجج ناراً على أدريان، الذي لحق بسام.

«إنه على ما يرام، لقد كان معي.» طيب أدريان خاطرها.

«وإذا كنت هناك؟ هل تفترض، باعتقادك أن لا شيء يحدث، طالما أنت موجود؟»

بدا من صوتها وكأنها على حافة الهستيريا «ألم يكن من الممكن أن ينزلق من على الصخور أو يقع في... أو...؟»

افتراضها كل هذه الكوارث قضى في النهاية على قدرتها على الكلام.

«أنا لم أقع، لقد كنت حذراً جداً.» قال سام بعد أن تبخرت سعادته الطفولية عندما جوبه بهذا الغضب.

خرت جيسي على ركبتيها، وحضنت سام. «أنا أعرف ذلك يا حبيبي، ولكن هذا المكان خطر، أريدك أن تعدني بعدم النزول إلى هذا المكان أبداً إلا إذا كنت أنا معك.»

«لكن يا أماه...»

«من غير، لكن. أريد أن تعدني الآن.»

ارتجفت شفة سام السفلى ولكنه بقي صامتاً بعناد. تدخل أدريان في الحديث: «إنه لا يريد أن يعطيك وعداً بذلك، لأني وعدته بأن آخذه إلى داخل الكهوف في أحد الأيام.»

حدقت جيسي إلى وجه أدريان وكأنها تريد أن تنهشه. «أنت وعدته بماذا؟ أنت لا تملك الحق في أن تخطط لهذه الأشياء من غير استشارتي!»

«لقد كان في نيتي أن أفعل ذلك ووعدي له بالذهاب إلى داخل الكهوف كان مشروطاً بموافقتك، أليس كذلك، يا سام؟»

أومأ الصبي الصغير برأسه بسرعة. «لقد قال لي الدكتور، إنه يجب أن نحصل أولاً على موافقتك، هل أستطيع الذهاب، يا ماما؟»

أحست جيسي بعسر في الهضم. هل جنون المغامرات هو وراثي؟ فهي لم تأخذ بالحسبان أن سام قد يرث هوس والده بالمخاطر. وإلاّ لكانت قد فعلت أي شيء لتصرفه عن هذا الهوس باهتمامات أخرى، مثل الدراسة الأكاديمية العليا

التي قد تلغي الرغبة للقيام بأي نشاط جسدي. ولكن هل رابطة الدم أقوى من أي شيء آخر؟

كانا ينتظران جوابها. هزت رأسها وقالت ببطء: «أنا آسفة، يا سام، الجواب هو لا.»

سمعت جيسي شهيق أدريان المتسارع: «هكذا بكل بساطة؟ لا؟»

«ماذا تتوقع مني أن أقول؟ بحق السماء، إنه ما كاد قد بلغ السادسة من عمره.»

«إذاً ماذا تريدين، لفه في القطن والصوف حتى يبلغ العشرين من عمره؟»

تعلق سام بقميص امه. «قولي نعم يا أمي، أرجوك أن تقبلي.»

شعرت وكأن غيمة قد غشت عينيها واستدارت نحو سام. «لا أستطيع، يا حبيبي، إذا حدث لك أي مكروه فلن أغفر ذلك لنفسي.»

دفع سام شفته السفلى إلى الأمام وتجعدت جبهته. «أنت لا تسمحين لي بأن أفعل أي شيء.»

«بخلاف ذلك، أنا أسمح لك بأن تفعل ما تريد. ولكن لا أريد منك أن تقوم بعمل أي شيء فيه خطر عليك.»

حوم أدريان فوقهما وكأنه ملاك النقمة. «يخيل لي أني سمعت هذا الكلام من قبل.»

هل هي على خطأ عندما تريد أن تحمي من تحبهم؟ هل قدرها أن تجلس في المؤخرة فيما زوجها، والآن ابنها، يجازفان بحياتهما في ملاحقة هدف لا طائل منه؟

هي لم تنجح في منع أدريان من ذلك، على أي حال.

ولكنها لن تجازف بحياة ابنها. «إذاً، لا تتعجب عندما تسمع هذه الكلمات مني، الآن.» قالت جيسي بلؤم.

كشفت حركاتها اللاإرادية مدى انزعاجها الشديد، جمعت أغراض النزهة ونفضت السجادة. راقبها سام وقد أسند ظهره إلى شجرة، ووضع ذقنه بين ركبتيه وملامح التمرد بانت على وجهه. فقد كان غاضباً لرفض امه السماح له بالذهاب. سيشكرها سام في المستقبل على هذه الحماية، قالت جيسي في نفسها، وهم في طريق العودة إلى البيت.

سار أدريان مباشرة إلى البيت، ومن الواضح أنه كان غاضباً مثل سام الذي كان يتبعه ببطء، يركل العشب بحذائه ورأسه منحنٍ إلى الأسفل. وخلال هذا الجدال في ما بينهم، ابتعدت داڤينا عنهم ومتعت نظرها بالمناظر الطبيعية، وقد سارعت للحاق بجيسي.

راودت جيسي الرغبة في سؤال داڤينا عما إذا كانت تظن أن لديها فرصة ثانية مع أدريان، ولكنها عدلت عن ذلك. لقد بدأت تحب داڤينا ولا تريد إفساد هذه الصداقة في بدايتها.

ويظهر أن داڤينا أحست بشعورها. «أشكرك، لسماحك لي بالمشاركة في هذه النزهة العائلية.»

أدركت جيسي أن لديها القابلية لدمج الغضب والحلم في آن واحد. «أنا آسفة لهذا التراشق الكلامي الذي حصل.» قالت لها: «ولكن كما تعرفين، العائلات هكذا دائماً. لقد تمتعت برفقتك.»

ردت داڤينا رأسها إلى الوراء، وطير الهواء شعرها مثل العلم. «بعد يوم مثل هذا، أتساءل عما إذا كنت سجنت نفسي أطول مما يجب داخل الاستديو.»

«عملك هذا، هل يتعلق بحاجتك للمال.» قالت جيسي.

ضحكت داڤينا: «لقد تكهنت حقاً. إن رؤيتك مع سام تجعلني أفتقد عائلتي. لدى أختي توأم في عمر سام.»

«أيعيشون بالقرب من هنا؟»

«زوج أختي يعمل في جزيرة الخميس في مضيق توريس، وكما تعرفين إن الجزيرة على أبعد ما يكون من أدلايد.» أسرّت داڤينا لجيسي: «أنا أحتاج تقريباً إلى أسبوع كي أصل إلى الجزيرة. ولهذا لا أستطيع رؤيتهم باستمرار. أما والدي ووالدتي فقد قررا أن يلفا العالم في رحلة مستديمة منذ أن تقاعدا، مما يجعل أي اجتماع عائلي نادر الحصول.»

«لا شك في أن حياتك متكاملة هنا، فأنت تعملين في دار التلفزة.» وتذكرت جيسي أنها قد رأت في السابق صور داڤينا تزين صفحة المجتمع عدة مرات، في عديد من المجلات، وهي تقوم بنشاطات اجتماعية مثيرة.

لوت داڤينا أنفها. «إن المشكلة في محيط التلفزة أنك لا تستطيعين التمييز بين من يريد صداقتك بحق من يريد صداقتك لشهرتك.»

«كلما أحسست بالحاجة إلى الصداقة الحقيقية والابتعاد عن هذا المحيط، باستطاعتك أن تأتي إلينا أنا وسام. وقد يكون من الأفضل أن أعيرك إياه، وأضمن أن مثل هذه التجربة ستعيدك إلى واقع الحياة على الأرض.»

لحقتا بأدريان عند الباب الخلفي لمنتزه غراتون وما زالتا تضحكان. «ما الذي يضحككما؟» قال أدريان فيما كان يضع مفتاح الحديد في قفل البوابة الأثري.

«نضحك على الرجال.» قالت جيسي ووافقت داڤينا بنظرة. ثم استرسلتا في الضحك ثانية، ألقى أدريان نظرة تدل على فقدان الصبر، وقال لسام: «يظهر أنهما يضحكان علينا. أول من يخرج من غرفة الحمام سيكافأ بأكبر صحن من الأيس كريم، هيا نتسابق.»

تبخر مزاج سام المتعكر بسرعة وهو يسابق أدريان إلى غرفة الحمام في الداخل، كي يفوز بالأيس كريم. داڤينا لحقت جيسي إلى المطبخ وانشغلتا بإخراج أغراض النزهة وتوضيبها في أمكنتها. «إن أدريان يجيد التصرف جيداً مع الأولاد، أليس كذلك؟» أسرت داڤينا بما لاحظته.

وافقت جيسي. «إنه دائماً هكذا.»

«لماذا لم تنجبا ولداً، عندما كنتما معاً؟»

تجنبت جيسي نظرات داڤينا وأجابت برقة: «لم نستطع الإتفاق على التوقيت. لقد كان غائباً معظم الوقت.»

توقفت داڤينا عن الكلام لبرهة وبدت مشدودة الأعصاب. «أعرف أن هذا لا يخصني، أنا أحبكما أنتما الإثنين! هل تظنين أن إمكانية عودتكما لبعضكما واردة؟»

تقلصت يد جيسي الممسكة بسلة القش. «حتى وقت قصير، كنت أظن أنه لا توجد أي إمكانية. ولكن كثيراً من الأشياء قد تغير منذ عودة أدريان من الأدغال. والشيء الأساسي الذي نحتاجه هو مزيد من الوقت.»

دلت عينا داڤينا المعبرتان، على تفهمها الموقف. «حلقة المكوك الفضائي ستكون آخر حلقات المسلسل الحالي على حافة الحقيقة. ولن تقرر شبكة التلفزة التعاقد على مسلسل ثانٍ قبل أسبوعين. وهكذا سيكون

هناك متسع من الوقت لتقضيانه معاً، وسأصلي من أجلكما.»

سيكون عند أدريان متسع من الوقت، إنها مفاجأة سارة. «لم أكن أعرف أن المسلسل أوشك على الانتهاء. لقد شغل وقت أدريان منذ عودته. وللمرة الأولى، مر الوقت سريعاً لأن أدريان كان يجلس في الاستديو عوض أن يكون هو الذي يقوم بالرحلة. وهذا التغير أفضل من أن أقع مريضة خوفاً عليه.»

لمع ضوء غريب في عيني داڤينا. «أنت لا تعرفين، إذاً؟»

«أعرف ماذا؟»

أدركت داڤينا أنها تكلمت في ما لا يعنيها وخرجت عن دورها فقالت متهربة: «من الأفضل أن أذهب. يجب أن أكون الساعة الثامنة في حفلة عشاء لجمع التبرعات الخيرية.»

أمسكت جيسي بذراعها. «لا يمكنك الذهاب قبل أن تنهي ما بدأت بقوله.»

«إنه ليس لي أن أقول، إذا أدريان لم يخبرك...»

«أخبريني أنت، ماذا؟» علا صوت جيسي. «من الأفضل أن تخبريني، لأنه يظهر أن أدريان ليست عنده النية ليفعل.»

أخذت داڤينا نفساً عميقاً، وزفرت ببطء: «يبدو أني سأكون حاملة الأنباء السيئة لك، يا جيسي. وأنا أشعر بأن ما سوف أقوله سيكون سيئاً. لقد عرض عليّ أدريان أن يكون على متن المكوك الفضائي كمراقب مدني.»

تراءت لها صورة المكوك كالنجر وهو يلتهب. «أوه، أيتها السماء العزيزة!»

«بالطبع، لم ينته التحضير للرحلة بعد. وتوجد ملايين من التفاصيل التي تحتاج إلى بحث.»

سوف ينتهون من التحضير، وهي تعرف أدريان جيداً. شعرت جيسي بالمرض حتى أعمق أعماقها. كل ما قاله عن سعادته بالبقاء في المنزل وترك غيره يغزو الجبال كان رماداً يذر في العيون.

كل شيء أصبح واضحاً الآن. تذكرت جيسي كيف احتج أدريان على كل العاملين في دار التلفزة عندما مازحوه بقولهم إنه لم يعد صالحاً لغير الرعي. وها هي الفرصة لإثبات قدرته على مواجهة المخاطر. ولن يفوّت هذه الفرصة لأي سبب كان. ألم يتكلم عن السفر إلى الفضاء على أنه المغامرة اللامتناهية؟

لم تسمع جيسي داڤينا وهي تخرج. كانت شاردة البال من قسوة الصدمة التي تلقتها في آمالها وأحلامها. يا للسخرية، كل هذا الوقت، وقد انصبّت نقمتها على داڤينا على أنها منافستها على قلب أدريان، فيما منافس آخر أكثر شراً كان يلوح في الأفق.

لا مجال للأمل، أبداً، في أن تربح معركتها على قلب أدريان وعقله ضد هذا المنافس ـ ركوب المخاطر.

الفصل الثامن

«فاز سام. وحصل على صحن آيس كريم كبير.»

قفز قلب جيسي وهي تشاهد أدريان يدخل المطبخ بشعره الأملس المبلل بالماء، وبشرته التي تنضح بالعرق الناتج عن سباقه مع سام. بدا عليه الارتياح والسرور.

هل سبب هذه الحيوية هو رحلته المنتظرة على متن المكوك الفضائي؟ رحلة كهذه تفقد صواب أي كان.

سألت جيسي، سام عندما دخل المطبخ: «هل تمتعت بنزهتك.» ثم وضعت امامهما صحون الآيس كريم، اللذين أخذا بالتهامهما.

أجاب سام: «أجل، افضل ما فيها كان النزول إلى كهف النهر.»

«أنت تعرف الآن موقفي بالنسبة للنزول إلى الكهف. كُل الآيس كريم، واقرأ كتاباً قبل أن تخلد إلى النوم.»

«يمكنك، إذا أحببت، أن تختار كتاباً تقرأه.» اقترح أدريان.

لمعت عينا سام. «كتاباً عن الأنهار والكهوف؟» ونظر جانبياً إلى جيسي يتحداها في أن تعترض.

نظر إليها أدريان، وهزت برأسها موافقة: «أعتقد أن لدي كتاباً عن الكهوف فوق أحد الرفوف.»

حالما انتهيا من التهام الآيس كريم، ترك سام وأدريان المطبخ واختفيا داخل المكتبة. ولم تسنح الفرصة لجيسي

كي تسأله عن رحلة المكوك الفضائي. هل سيخبرها من دون أن تسأله؟ أو أنه سيضعها تحت الأمر الواقع، مثلما فعل عند قيامه بالرحلات السابقة، ثم تعجب من اعتراضها على ذلك؟

أغضبها التفكير في هذا الموضوع وأخذت تضرب الأشياء في المطبخ وهي ترتبها. «هل أنت ما تزالين غاضبة مني لأني أخذت سام إلى النهر؟» سأل أدريان بعد أن عاد إلى المطبخ.

«كان عليك أن تسألني أولاً.» أجابت باستياء.

«لقد كنت أعرف مسبقاً جوابك.»

هذا الرجل لا يُحتمل! ضربت بقوة، منشفة صغيرة على طاولة المطبخ. «لقد كنت عديم المسؤولية، بأخذه معك وأنت تعرف ما هو موقفي من ذلك.»

«تقصدين أني عديم المسؤولية.» رد أدريان على هجومها: «لنكن أكثر دقة، إن أي شخص لا يتبعك مثل ظلك هو إنسان عديم المسؤولية. أليس هذا صحيحاً؟»

«أتظن ذلك؟ لمجرد أن أعترض على مجازفة غير ضرورية بحياة ولدي!»

«لقد كان بأمان تام معي. ولكن هذه هي المشكلة، أليس كذلك؟ أنت تفضلين ربطه إلى فوطة المطبخ التي ترتدينها كما حاولت معي في الماضي، بدلاً من أن يكون سام معي بأمان.»

«أنا أفعل ذلك بسبب حبي.» قالت جيسي وهي غير متأكدة من هو المقصود بهذا الحب، سام أم أدريان.

«لماذا تتجادلان؟»

لم تسمع سام وهو يدخل المطبخ ويقف في منتصفه وعيناه يغشاهما الحزن. كان يرتدي ثياب الرجل الوطواط

ذات الألوان، الأسود والأبيض والأصفر. ونكاؤه، وإن كان شديداً، لا يسمح له بفهم مغزى الروابط بين البالغين.

اقتربت جيسي من سام. «لا عليك يا حبيبي. في بعض الأحيان يختلف الكبار على الأشياء، تماماً كما تختلف أنت مع نيل على بعض الأشياء.»

داعب أدريان شعر سام. «الجدال انتهى الآن، هيا عد إلى فراشك وسوف آتي إليك وأغطيك. ما رأيك؟»

«من الأفضل أن آخذ سام إلى الفراش.» قالت جيسي بصوت متهدج.

«هل تحبين الدكتور كول، يا أمي؟» سألها سام فيما كانت تدسه داخل الفراش.

أقفلت جيسي كتاب تسلق الجبال الذي كان سام يتصفحه ووضعته جانباً على الطاولة. «نعم، أنا أحبه.» أجابته بأمانة.

«هل ستتزوجين منه؟»

صكت ركبتاها عندما سمعت هذا السؤال وجلست على حافة السرير. لقد حان الوقت كي يعرف سام جزءاً من الحقيقة. «أنا والدكتور كول كنا متزوجين قبل ولادتك.» بدأت جيسي القصة: «ولكن، في بعض الأحيان، لا يتآلف المتزوجون في ما بينهم، كما هم يظنون قبل أن يتزوجوا.»

«ولكنك تتآلفين معه الآن.»

«الآن، نحن صديقان فقط. والزواج يحتاج، لكي يدوم، إلى أشياء أكثر وأقوى من الصداقة.»

«وماذا يحتاج أكثر؟»

طبعت جيسي قبلة على جبهة سام المحترقة بفعل

أشعة الشمس وتنهدت: «أنت تسأل أسئلة صعبة.»

أدار ظهره لها وسمعت احتجاجه المكتوم: «هذا ليس عدلاً.»

جيسي تعرف الحياة تماماً. «الحياة ليست عادلة يا حبيبي» لم يرد عليها. ولاحظت انشراحه عندما دخل أدريان الغرفة ليلقي عليه تحية المساء. إستحمت وذهبت إلى الفراش ومعها كتاب، لقد صممت على ألا تلتقي أدريان مرة أخرى هذه الليلة.

عندما أفاقت في الصباح التالي، وجدت ان أدريان قد ذهب إلى الاستديو. نزلت إلى المطبخ وحضرت طعام الافطار، والسندويشات التي سيأخذها سام معه إلى المدرسة. وكانت تشعر أن النوم قد أتعبها بدلاً من إراحتها.

فوجئت عندما لاحظت أن سام، على غير عادته، لم يستيقظ قبلها. فهو يكره البقاء في السرير والاسترسال في النوم، وذهبت إلى غرفته كي توقظه.

«سام، استيقظ، لقد حان وقت المدرسة» نادته من خلال باب غرفته المفتوح، لكنها لم تسمع جواباً. دخلت غرفة النوم، الأغطية كانت ملقاة جانباً والسرير خالٍ.

«سام؟»

وجدت غرفة الحمام خالية، ونظافتها تشهد أن أحداً لم يدخل إليها، فاستبدَّ بها الخوف. بحثت عن ملابسه ولكنها لم تعثر عليها.

لم يثمر البحث عنه في الحديقة، ولا أثر يدل على أنه كان هناك. طلبت رقم هاتف الاستديو بأصابع مرتجفة، وسألت عن أدريان. عندما أمسك بالخط، أخبرته أن سام مفقود

«هل من عادة سام أن يهرب من البيت؟»

«أبداً. أوه، يا أدريان، ماذا أستطيع أن أفعل؟»

«باستطاعتك البقاء هادئة. لا يمكن أن يكون قد ذهب بعيداً.» أجابها بصوت حازم: «سأطلب الشرطة من هنا - للوقاية فقط - ثم آتي مباشرة إلى البيت وأساعدك في البحث عنه. وأراهنك على أننا سنجده في بيت الحراس يبحث عن لعبة مفضلة تركها هناك.»

«أرجو أن تكون على حق في استنتاجك.» أعصابها المشدودة أجهدت صوتها. «سوف أبحث عنه هناك حالما أنتهي من المكالمة معك.»

«وخلال ذلك، أكون قد وصلت إليك.»

وعده لها بالقدوم زاد من معنوياتها. «أرجوك أن تسرع.» رجته وعلقت السماعة.

طلبت جيسي رقم هاتف جو التي كانت تجهز نفسها لتأخذ سام معها إلى المدرسة، فقد كانت تعطي حصة موسيقى في مدرسته مرة في الأسبوع. ونيل تتشوق إلى اليوم الذي يرافقها فيه سام. لم تتردد جو: «سآتي في الحال وأساعدك في البحث عنه.»

«ولكن، ماذا لو التقيت أدريان؟»

«سوف نتفق على ذلك فيما بعد. في الوقت الحاضر، يجب أن نعثر عليه. سوف آتي مباشرة بعد إيصال نيل إلى المدرسة.»

«شكراً، يا جو.» قالت جيسي بصوت مليء بالخوف. وضعت السماعة بشدة في مكانها وأسرعت إلى منزل الحراس.

لم تجده هناك، ولم يبق إلا مكان واحد للبحث عنه.

«الجدول؟» ردد صوت أدريان صدى أسوأ مخاوفها، عندما قابلته على الطريق الفرعية وهي تركض باتجاه البيت الرئيسي. لاحظ ارتباكها، فأمسك بمعصميها وأجبرها على النظر إليه. «إن ذهابه إلى هناك لا يعني بالتالي أن مكروهاً سيحدث له.»

«كان يجب أن لا أمنعه من الذهاب إلى الكهف معك.» قالت جيسي وهي تنتحب: «ليتني لم أكن عنيدة بهذا الشكل...»

«لما شعر بالحاجة للذهاب وحده.» أكمل أدريان جملتها: «قد تكونين على حق، ولكن لا فائدة من ذلك الآن. الشيء المهم هو العثور عليه وإعادته سالماً. سأحتاج إلى بعض العدة.»

ارتجفت بيأس ضمن قبضته. «ليس عندنا وقت كاف، يجب أن ننزل إلى هناك الآن، بلا أي تأخير.»

سمحت له بأن يسحبها على أعقابه، وراقبته من غير أن تقدر على المساعدة، وهو يضع الحبال والعدة في كيس الرحلات.

آخر ما التقطه أدريان بدا أنه زحافة ثلج للأولاد. بلونها الأصفر البراق والمصنوعة من رغوة البلاستيك، وربطت من مقبضيها على كل جانب بالحبال. «زحافة ماء.» قال بعبوس. ولم تستطع جيسي أن تسأله، ما الفائدة التي يتوقعها من استعمال الزحافة.

صرّت الدواليب بشدة، عندما أوقفت جو سيارتها بفرملة سريعة، فيما كانا يستعدان للذهاب. «كيف استطيع مساعدتكما؟» سألت وانتظرت التعليمات.

«أبقي بجانب الهاتف تحسباً، ربما كان سام في مكان آخر واتصل.» وأضاف أدريان: «أخبري فرق النجدة أين باستطاعتهم أن يجدونا.»

«سأفعل ذلك الآن.» كان وجه جو شاحباً ولكنها متمالكة أعصابها، وشدت على ذراع جيسي قبل أن تدلف إلى داخل المنزل.

بدا الأخدود وكأنه أكثر انسياباً، وماء الجدول أكثر هياجاً من أي وقت مضى. وصلا إلى الحافة ونظرا إلى الأسفل. «سام، هل أنت هناك؟» ردد الصدى صوت أدريان في الأخدود ولكن مناداته لم تحظ بجواب.

«سوف أنزل إلى الأسفل. إبقي أنت هنا.» أمرها أدريان.

خوف جيسي أصابها بالرعونة. «كلا، أنا آتية معك.»

سجلت نبضات قلبها تسارعاً، فيما كان أدريان يقدر مدى شدة تصميمها. «إذن، تعالي، ولكن افعلي تماماً ما أقوله لك.»

«هل ستستعمل سقالة كي تنزل؟» إنها لم تفعل ذلك من قبل، وارتجفت ركبتاها تحسباً لما هو آت. ولكن احتمال أن يكون سام في الأسفل جعلها تصمم على الوصول إليه حتى ولو اقتضى الأمر الزحف على زجاج مكسر.

«لحسن الحظ، لا حاجة لذلك. أنا وسام وجدنا طريقاً نستطيع أن ننزلق عليه. هيا الحقي بي.»

سهّل أدريان الأمر على جيسي بتوجيهاته، وأشار إلى المواضع التي تستطيع أن تمسك بها أو تضع قدميها. وعلى الرغم من ذلك، كانت ترتجف هلعاً، عندما وصلا إلى القعر - التخت، كما يسميه أدريان. رفعت رأسها، وتفحصت

الجدار الصخري شبه العمودي للأخدود. «كيف استطاع سام النزول بمفرده؟»

«نحن لا نعرف الآن إذا فعل ذلك أم لا. ولكن عندما يصمم أي شخص على القيام بشيء، فإنه يفعل أشياء مذهلة. كان سام يقرأ كتابي عن كيفية تسلق الجبال والصخور. وكلانا يعرف سرعة استيعابه للمعلومات.»

لاحظت جيسي أن أدريان يتكلم باستمرار ليمنعها من التفكير فيما هما بصدده، وليباركه الله لذلك. منظر الجدول، ومياهه الهائجة مغطاة بالزبد، دب الخوف في قلبها. هل من الممكن أن يكون سام قد سقط فيه وجرفته المياه إلى داخل الكهف؟ هل من الممكن العثور عليه حياً؟

خيوط العنكبوت كانت تسدُّ مدخل الكهف. وتحت ذلك، كانت المياه تختفي في الأرض من خلال شدقها المفتوح. نظرت إلى المدخل وارتجفت. «هل تعتقد أن سام في الداخل؟»

رفع أدريان حبلاً ملفوفاً على بعضه، وشيئاً أزرق مغطى بالطين. «نعم، أعتقد ذلك.»

«ارنب الهندسايت!» صرخت جيسي وانتشلت الشيء الأزرق من يده واحتضنته ودموعها المنهمرة اختلطت برذاذ ماء الجدول. «لا شك أن سام جلبه معه للرفقة.»

سحب أدريان الحبل الذي اختفى طرفه داخل الكهف بثبات. «لقد لجأ إلى الطريقة الصحيحة، ولكنه لم ينجح تماماً في استعمالها.» إرتد الحبل على صدره بشدة من قوة السحب، وظهر الألم واضحاً على وجهه. «قطعة نائتة وحادة، من الصخور قطعت الحبل.»

«أوه، يا إلهي.» وضعت جيسي يدها على فمها كي تمنع نفسها من الصراخ الهستيري. وفي يأس أخذت جيسي تمزق خيوط العنكبوت. «يجب أن نصل إليه.»

سحب أدريان سكيناً من وسطه، ذات نصل طويل لمع تحت ضوء الصباح. دفعها بكتفه عن المدخل، وضرب بالسكين قاطعاً فتحة بين الأغصان، ونظر إليها. «هل أنت متأكدة أنك تريدين الدخول؟»

احتجت جيسي ببحة مسعورة وتلفت من خلال الفتحة. وعلقت قدمها بخيوط من العنكبوت على الدرجة العليا، ولولا أن أدريان أمسك بها وثبتها، لوقعت وسقطت على رأسها. «أتركي لي القيادة.»

أنصت أدريان بانتباه شديد. «هناء هل سمعت؟»

«أسمع ماذا؟ سام؟» نادته.

وجاءها الرد، فقد سمعت صوتاً ضعيفاً يشبه صوت احتكاك الطبشور على لوح الخشب. «إنه هو، إنه سام.» وأكملت وهي تنتحب: «نحن قادمان، يا حبيبي. أمك قادمة.»

وضب أدريان، على ضوء البطارية، الحبال والعتلات وزحافة الماء الصفراء. «ماذا تفعل؟ يجب أن تذهب إليه!» قالت جيسي.

لكنه لم يتوقف عن العمل. «إنه على الضفة الأخرى من النهر، معلق بين جذور شجرة كبيرة ورقعة من الصخر. سأذهب إليه.»

«أين؟ أريد أن أرى.» طلبت جيسي.

«لا وقت. إذا جرفه النهر، قد لا نراه أبداً.»

«يا إلهي.»

راقبت جيسي أدريان، وهي في حالة من العذاب النفسي المُمزق، لعدم استطاعتها القيام بأي شيء آخر، يعلق العتلة على حبل ويربطهما إلى الزحافة، ثم يربط مشبكاً في طرف الحبل. أمرها أن ترجع قليلاً إلى الوراء، وبتأن بالغ رمى المشبك إلى الضفة الأخرى، حيث علق بين الصخور. «هذا الحبل سيمنع المياه من جرفنا ويكون علامة طريق الرجوع عندما استعمل الزحافة.»

ارتدى أدريان بعد ذلك سترة واقية من الغرق وخوذة متوجة ببطارية ضوء، أنارت الظلام أمامه. وأعطاها المصباح المحمول باليد. «إذا كنت تعرفين الصلاة جيداً، فهذا هو الوقت المناسب للصلاة.»

صلّت جيسي كما لم تصلِ من قبل، فيما كان أدريان يمسك بمقبضي الزحافة، وينبطح عليها وينزلق نحو المياه المعتمة. طفى على وجه الماء مثل الفلينة، وأمسك بالحبل كي لا تجرفه مياه النهر بعيداً، واهتز في يدها المصباح بشدة، فيما كانت تراقب تقدمه نحو سام.

خرجت صرخة قوية من حلقها، وقد شاهدته يفشل في الامساك بشجرة على الضفة الأخرى، وتجرفه المياه عدة أمتار، بعيداً عن موقع سام. ضربات الألم عصرت قلبها. هل من الممكن أن تخسر الإثنين معاً في فوهة الجحيم هذه؟

توقف عن الانجراف، فجأة. فقد وجد نتوءاً صخرياً يتمسك به. وبيطء استطاع أدريان أن يتحامل على آلامه ويسبح ضد التيار، كي يصل إلى سام. فيما كانت جيسي تلمحه متقوقعاً على نفسه عالقاً بين جذور الشجرة.

«لقد وجدته.»

ولكنهما لا يزالان بعيدين عن بر الأمان. ازداد قلقها ثانية وهي تشاهد أدريان يربط سام إلى الزحافة البلاستيكية. هل أصابه مكروه؟ وجاهدت جيسي، كي تمنع نفسها من أن تقفز إلى الماء وتلحق بهما.

استطاع أدريان، في دقائق، أن يسحب الزحافة مع حملها العزيز، رجوعاً إلى الضفة الأولى، ممسكاً بشدة الحبل الممدود بين الضفتين. ولكن جيسي أحست بهذه الدقائق وكأنها الدهر كله، قبل أن تمد يديها لتساعده في الخروج من الماء.

«لا تحركيه. أتركيه مستلقياً، تماماً على ظهره.» أمرها أدريان.

«ماذا حدث له؟ لماذا لا يتحرك؟ أما آن لهذا الكابوس أن ينتهي؟»

دفع أدريان الزحافة خارج الماء، بعناية بالغة، ووضعها على قطعة أرض مستوية، ثم خرج من الماء وجلس في مكانه ويداه ملتفتان حول ركبتيه.

لاحظت جيسي أن الصراع مع التيار ذهاباً وإياباً قد أرهقه. فوضعت يداً على كتفه تتحسس عضلاته وهي تتقلص تحت ثيابه المبللة. «شكراً لك يا أدريان لإرجاعه لي.»

رفع أدريان نفسه، بمجهود شديد ووقف على قدميه. «إبقي معه هنا، لا شك أن فريق النجدة قد وصل، وهم يعرفون كيف ينقلونه من دون أن يسببوا أي أذى له.»

فهمت جيسي ما يعني أدريان وأصابها الهلع. إنه يشك

في أن سام قد أصيب في ظهره. ولم تستطع تحمل التفكير في أن سام سوف يقضي بقية حياته على كرسي متحرك.

تحرك سام قليلاً، وتفحص الحزام الذي يربطه إلى الزحافة. «أمي، أشعر بالم في حنجرتي.»

مسحت الماء عن وجهه المبلل. «صه، يا حبيبي. سنخرج من هنا بأسرع وقت.»

«سام، سأطلب منك شيئاً وأريدك أن تنفذه تماماً.» قال له أدريان بلطف ورقة، مما أشعر جيسي بالرغبة في البكاء. أومأ سام برأسه بالموافقة، وعيناه الكبيرتان تلمعان على ضوء البطارية: «أريدك أن تبقى مستلقياً، هكذا، من غير أن تحرك أي عضلة في جسمك. أفهمت؟»

تقابلت نظراتهما الواثقة، من بعضها. «نعم فهمت.» وأصبح سام جامداً، مثل التمثال على الزحافة. استغربت جيسي التأثير القوي لأدريان على سام. من أين أتى هذا التأثير؟ هل هو رباط روحي غامض يشدهما إلى بعض؟ لقد ظهر هذا الرباط من اللحظة التي التقيا فيها لأول مرة. الآن هذا الرباط سينقذ حياة سام.

في اللحظات التي تلت، اختلطت الأمور عليها. رجال النجدة في سترات برتقالية اللون، تدافعوا إلى داخل الكهف وجلبوا معهم بطاريات إضاءة قوية، وحمالة. وضعوا سام عليها بأقصى عناية، وأزاحوا جيسي من طريقهم بلطف وحزم، فيما كانت تراقبهم يحملون سام إلى خارج الكهف.

«أريد أن أذهب معه.» طالبت جيسي، ولكن منعها أدريان من ذلك.

«إنهم سيستعملون الرافعة لنقله إلى أعلى بأقصى ما يمكن من الحذر.» قال لها أدريان: «وسنكون عقبة في طريقهم. من الأفضل أن نعود من الطريق نفسها التي أتينا منها، وسنصل في الوقت الذي ينتهوا فيه من رفع سام إلى فوق.»

لم تحس جيسي بالصعوبة وهي تتسلق، فقد وضعت يديها وقدميها حيث أدريان أشار لها متتبعة صوت تعليماته حتى وصلا إلى أعلى الأخدود.

وأتت الدموع تنهمر بغزارة أدهشتها، فوق وجنتيها. واستمرت بالبكاء، وهي تتنفس بصعوبة، حتى جفت مقلتاها.

«هذا ما يجب أن تفعليه، ابكي ولا تتركي شيئاً في داخلك.» دلّك أدريان رجليها المرتجفتين وشعرت جيسي بالدفء يسري في مفاصلها. والاحساس بها يعود تدريجياً، ويده القوية ترجعها إلى العالم الحقيقي.

«هل تستطيعين الوقوف الآن؟»

«إذا ساعدتني على ذلك.» باستطاعتها أن تفعل أي شيء إذا كان أدريان بجانبها. أتتها هذه الخاطرة على غير توقع. لف ذراعه حول خصرها فيما كانت تحاول الوقوف على قدميها، الضعيفتين.

طبع قبلة على جبينها وقال وهو يشاهدها تثبت قدميها على الأرض: «هذا ما أتوقعه من فتاتي.»

وصلت الحمالة التي تنقل سام إلى أعلى الأخدود. وسمعت جيسي صوت صرير مروحية، كانت تحوم بالقرب منهم قبل أن تهبط على قطعة أرض مستوية. ورأت جيسي

الإشارات الخاصة بفرق النجدة مطبوعة على هيكلها بوضوح.

«سيأخذون سام إلى المستشفى بالمروحية.» أخبرها أدريان: «إنها أسرع وأسلم طريقة لتجنب مضاعفات الإصابة.»

«هل نستطيع الذهاب معه؟» وقعت نظرة جيسي المتلهفة على وجه أدريان وقد أدركت أنها أخذت تعتبر وجوده معها بديهياً.

«بالطبع.» نظر إلى ملابسه المبللة. «اذهبي أنت بالمروحية، وأنا سوف أسرع بالذهاب إلى المنزل وأغير ملابسي، ثم ألحقك بسيارتي. ولن يأخذ ذلك مني وقتاً طويلاً.»

«حسناً.» سأل أدريان قائد المروحية إلى أين سيأخذون سام، ثم لوح لهم مودعاً واختفى حول الزاوية متجهاً إلى البيت. ولم تتذكر جيسي أن جو في البيت إلا عندما أصبحت في الجو.

هذه كانت تجربتها الأولى على جناح المروحية. وكانت ستموت من الرعب لولا أن قلقها الأقوى كان على سام الذي استلقى من دون حراك على حمالة مربوطة إلى أرض المروحية، شاحب الوجه وضعيفاً. قام رجال النجدة بالإسعافات الأولية اللازمة وقالوا لها إنه من غير المستحسن الاسترسال في العلاج قبل أن يعطي المستشفى حكمه على حالته.

أعدّ المستشفى لاستقباله، وأسرع العاملون بنقله من المروحية قبل أن تقف محركاتها، تاركين جيسي تلاحق

بنظراتها ما يفعلون بابنها قبل أن يبعدوه عن مرمى النظر.

كادت أن تبكي من الارتياح الذي شعرت به، وهي تشاهد أبواب غرفة الانتظار تفتح ويلج منها أدريان. لم يضع وقتاً طويلاً في تغيير ملابسه، بدا جذاباً وهو يرتدي بنطال الجينز الباهت اللون، وبلوزة البحرية القطنية. وعلى الرغم من قلقها على سام، لاحظت جيسي أن الممرضات تنظرن باعجاب إليه ويتهامسن كلما مر من أمامهن.

تقدم نحوها منتصباً مثل السهم ووضع يديه على كتفيها. «هل من أخبار عن سام؟»

أجابت: «لا.» بهزة من رأسها وبعينين مغمضتين. «لقد أخذوه مني، ولا أعرف ما يجري.»

زم أدريان فمه في عبوس. «سأحاول أن أعرف ماذا يجري.»

تحلقت الممرضات حول أدريان ورأتهن يهززن رؤوسهن مبديات الأسف لعدم استطاعتهن مساعدته. والتقطت احداهن سماعة الهاتف وتكلمت فيها. لوت منديلها بين أصابعها بتوتر ظاهر، وأرادت جيسي أن تصرخ بهم وتطالب بمعرفة ما يجري. ولكن غريزتها اشعرتها بأنها ستعرف مصير ابنها إذا تركت أدريان يتصرف ويتحمل هذه المسؤولية.

ظهر بعد لحظات، رجل يرتدي ثوب الأطباء الأبيض في جيبه السماعة الطبية. وعلى وجهه ابتسامة تحية، ورأت جيسي الرجلين يتصافحان، ووقفت على قدميها عندما اتجها نحوها.

تكلم أدريان أولاً: «جيسيكا، أقدم لك دكتور إدغارد. إنه المكلف بعلاج سام. تريفور كان المسؤول الطبي في رحلتنا الأخيرة إلى القطب الجنوبي.»

تبادلت ابتسامة مع الدكتور. «أتشرف بمعرفتك يا دكتور إدغارد، أنا واثقة أن ابني بين أيد قديرة.»

«تريفور هو الأفضل.» أكد لها أدريان.

ابتسم الدكتور ممتناً. «شكراً، ولكن لا تلقبني بالعبقري باكراً، يا أدريان.» وأضاف: «نحن الآن لا نزال في طور تقدير مدى إصابات سام.» أحست جيسي وكأن دوشاً من الماء البارد قد انصب عليها. «إن الإصابة في ظهره، أليس كذلك؟»

أمسكت يد أدريان بها من تحت ابطها بعد أن رآها تترنح. «إن نتيجة إصابات الظهر ليست واحدة، ألا توافق يا تريفور؟»

«لحسن الحظ، إصابات الظهر لا تماثل بعضها. إنه من المبكر جداً اعطاء رأي في حالته، يا سيدة كول. ولكن التشخيص الأولي أعطانا أملاً كبيراً.»

«إذاً، هو لن يكون...» ولم تستطع جيسي أن تلفظ كلمة مُقعد.

«نحن لا نعرف بعد.» أبعد عنها الدكتور الآمال المبكرة. «لما لا تنتظران في مكتبي حتى نتبين نتائج الفحوص؟ خذا فنجاناً من القهوة وقليلاً من الراحة، أنتما بحاجة إلى ذلك.»

كيف يمكن أن ترتاح وابنها مصاب، واحتمال الشلل وارد؟ أرادت جيسي أن تعارض ولكن القوة كانت تنقصها. وقادها أدريان عبر الممشى إلى مكتب الدكتور.

مكتب الدكتور المغطاة جدرانه بالخشب كان مريحاً بالمقارنة مع غرفة الانتظار الموحشة. جلست جيسي على أريكة من الجلد الطبيعي وصب أدريان فنجانين من القهوة.

«من حسن حظنا، أن الدكتور تريفور هو الطبيب المعالج.» قال أدريان فيما هو يناول جيسي فنجان القهوة. «إنه اختصاصي بارع في معالجة إصابات الظهر، لقد أنقذ الكثير من الرياضيين من الشلل بمعالجتهم بطريقة الحقن بالأوكسجين.»

«أهذا ما يفعله الآن مع سام؟»

«إنهم لا يزالون يجرون الفحوص الأولية لكي يعرفوا مدى الإصابة التي قد لا تكون بالسوء الذي تظنين.»

«كان يجب أن أسمح له بالذهاب معك إلى الكهف.» قالت جيسي بلا انفعال. «لكان ذلك أضمن وأسلم.»

«على الأقل، إنك تعترفين بثقتك بي.» قال أدريان بلهجة جافة. أدركت جيسي تدريجياً، أن أعصاب أدريان متوترة جداً. لماذا الآن؟ وشبح المأساة التي كان يمكن أن تحدث بدأ بالانحسار!.

«يجب أن أشكرك على إنقاذك حياته.» اعترفت جيسي له بالجميل.

عندما توقف أدريان عن المراوحة في الغرفة، شعرت جيسي بأن توتر أعصابه وصل إلى الذروة ونظر إليها. «هذا أقل ما يجب أن أعمله، أليس كذلك، يا جيسيكا؟»

مثل الحيوان، اشتمت جيسي في الهواء رائحة الخطر. «ماذا تعني بذلك؟»

عيون وقلوب

«أنت تعرفين تماماً ما أعني. اليوم، أنا أنقذت حياة ابني.»

لم تستطع جيسي الكلام، وأدريان واقف يحوم فوقها وظله يرمي قليلاً من الظلام عليها. أمسك فجأة بمعصمها ورفعها على قدميها، كي تقف وجهاً لوجه أزاءه. «سام هو ابني، أليس كذلك؟»

هل من نهاية لهذا الكابوس؟ كم من الوقت تستطيع التحمل؟ «أنت لا تستطيع أن تبرهن شيئاً.» همست جيسي.

حدق إليها بعينين تتأججان ناراً. «أتظنين ذلك؟ كنت بعد أن قابلت جو – جوزفين بالأحرى، وجدت القطعة الأخيرة لحل هذا اللغز.»

«ومع ذلك، هذا لا يبرهن على أنك والد سام.»

«ربما لا أستطيع أنا تقديم البرهان ولكن تريفور إدغارد يستطيع. لقد طلبت منه إجراء فحص الجينات الوراثية عليه.»

«الدم ليس برهاناً قاطعاً.»

«هذا صحيح، لكن بصمات الجينات الوراثية هي برهان قاطع. إنهم يفرزون قطعة صغيرة من هذه الجينات إلى عناصرها. كل خط على بصمة الجينات الوراثية يجب أن يطابق خطاً آخر من بصمات الأب أو الأم. وأنا متأكد أن هذا الفحص سيثبت بلا جدال أن سام هو ابني.»

لولا إمساك أدريان بها، لكانت جيسي قد انهارت أرضاً، وعوضاً عن ذلك ترنحت متألمة، وذهبت منها كل مقاومة. ولكن الغضب سارع ليحل محلها. «ابنك، البرهان على ذلك... أهذا كل ما يهمك؟ سام هو ابني أيضاً!»

«لقد أمضيت ست سنوات في هذا الوضع المميز، يا جيسيكا.» صرخ بها أدريان: «هل تظنين أني كنت قد بقيت بعيداً ست سنوات لو عرفت بوجوده؟»

إذاً كان سيأتي إلى البيت من أجل سام ليس من أجلها.

«لا أعرف.» قالت بيأس: «ولكن كل الذي أعرفه الآن، هو أني لمه وسام لا يعرف والداً غيري.»

من غير أن يزحزح نظره عنها. «لقد حان الوقت لتغيير هذا الوضع، أليس كذلك؟ على الرغم من قناعاتك، أنا لست وحشاً، وأنا أحترم دورك كأم لسام.»

لعب الأمل في رأسها. هل سيكون منطقياً ومعقولاً بعد كل الذي حدث؟ «إذاً لن تحاول أن تأخذه مني؟»

«أخذ ولد عمره ست سنوات بعيداً عن أمه هو عمل لا إنساني.» قال أدريان موضحاً. ولكن ملامحه الحادة دلت أن لديه شروطاً معينة. «إنه لك... ولكنه لي أيضاً.»

«أنا لا أستطيع التخلي عنه. لن أفعل!» أنكرت على أدريان حقه بفجاجة وصارعت لكي تتملص من قبضته.

جذب أدريان جيسي نحوه بشدة قطعت أنفاسها وقال: «يبدو لي أنه لم يتبق لنا إلا حل واحد فقط.»

الفصل التاسع

من المفترض أن يكون اليوم أسعد يوم في حياة جيسي، ولكنها خلافاً لذلك شعرت بالقنوط والإحباط فيما كانت تستعد للاحتفال الذي أصر أدريان على إحيائه كجزء من الحل الذي اقترحه.

إنها لن تنسى أبداً الذهول الذي اعتراها، عندما اكتشفت مغزى الحل الذي اقترحه أدريان. «لا يمكنك أن تعني أن نبدأ ثانية من حيث انتهينا؟» قالت له بفم فاغر.

نظرته إليها لم تسر أبداً. «هذا تماماً ما أعنيه، سام يحتاج إلى والد كما يحتاج إلى أم، وله الحق في ذلك، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي ترضي الجميع.»

«لا شك أن هناك حلاً آخر، الحضانة المشتركة...»

«هل هذا يعني أنك تقبلين بالحضانة المشتركة؟»

رفعت يديها في الهواء دلالة على الاستسلام للواقع. «كثير من الأزواج يلجأون إلى الحضانة المشتركة، إذا لم يجدوا حلاً آخر.»

«هل أنت على استعداد لأن ترى سام في عطلة الأسبوع فقط؟»

شعرت جيسي بهوة أكبر من الهوة التي شاهدتها في الكهف، تنفتح تحت قدميها، مظلمة ومرعبة. وتأملت الحياة من دون سام. «أنا لم أكن أعني ذلك، أن أراه فقط في عطلة الأسبوع، لقد ظننت أن الذي سيراه...»

«عطلة الأسبوع غير كافية لك، ولكن يجب أن تكون كافية لي، أهذه هي خطتك؟»

شعرت جيسي أنها انحشرت في زاوية. «إن الوضع مختلف بالنسبة لك.» أصرت على موقفها: «إنه لا يعرف والداً غيري، ولا يمكنك أن تأخذه مني الآن.»

رفع أدريان حاجبيه استهزاءً: «لا يمكنني؟ محاكم هذه الأيام أصبحت أكثر مرونة بالنسبة لهذه المواضيع. الأب له حقوقه أيضاً. وعلى كل حال، حياة سام معك لم تكن دائماً مثالية، هل كانت، يا جيسيكا؟»

«أنا لست غولاً، يا جيسيكا.» قاطعها أدريان عندما لاحظ أن توتر أعصابها قد سرق صوتها: «أنا أعرف أن سام يحتاجك، وأنت تحبينه، ولكنه أيضاً يحتاج إليّ، والعودة لبعضنا ستوفر له عائلة مستقرة تساعده على الاستقرار النفسي والنمو الصحيح.»

ولكن ماذا عن احتياجاتها هي؟ لم يذكرها مرة واحدة على الأقل. إنه يريدها لنفسه بل إنه يريد عودتها من أجل سام، وكان واضحاً جداً في طلبه. إذاً هي وسيلة وليست غاية. إنه شيء مر يصعب عليها ابتلاعه.

حين كانت تراقب أدريان وهو ينقذ سام بشجاعة لا متناهية، اعترفت جيسي لنفسها بما لم تعترف به طوال مدة غيابه، بأن زواجهما لم ينته. في الحقيقة، ما حصل كان انقطاعاً عن الزواج بسبب غيابه. ولكن المشاعر القديمة انبعثت بكل قوتها من جديد لحظة وقوع نظرها عليه. لقد كانت تخدع نفسها عندما ظنت أن كل شيء بينهما قد انتهى. وأن كل شيء كان لا يزال في البداية.

الآن، أدريان يصر عليها أن تصبح زوجته مرة ثانية ليشاركها في تربية سام، وجيسي تعرف حقيقة شعورها نحوه، ولكن السؤال عن مشاعره كان كثيراً عليها. والبديل هو أن تخرج من حياته.

على الرغم من تهديداته، كانت جيسي تعلم أن فرصتها كبيرة في الاحتفاظ بحضانة سام، ولكن فكرة القتال من أجل حضانة ولدها كانت ترعبها. واحتمال العيش من دون أدريان كان يرعبها بالقدر نفسه.

المشكلة هي، هل تستطيع العيش بالقليل الذي عرضه عليها، وهي تعلم أنها تريد أكثر من ذلك منه؟ وفي غشاوة من الحيرة سمعت نفسها وهي تقول: «نعم، سنعود لبعضنا.»

جواب أدريان عليها كان عملياً: «حسناً. سنحتفل بالزواج في منتزه غراتون بأسرع وقت ممكن كي يصبح لدى سام عائلة نظامية عند خروجه من المستشفى.»

جاءت صرخة جيسي الاحتجاجية غريزية: «أي احتفال؟ وأي زواج؟ إننا غير مطلقين.»

«يجب أن تكون عودتنا لبعضنا علنية ورسمية، من أجل سام، وأن نكرر قسم الزواج ثانية؛ يعني أن نجعله حقيقياً ورابطاً أمام سام. هل تريدين من سام أن يعرف خفايا الأمور؟»

أما هي فلم يأخذها أدريان بالاعتبار في هذا الاحتفال العلني الكاذب. «لا أعرف.» أجابته على سؤاله بتهرب.

«اقبلي أو ارفضي، يا جيسيكا.»

شعرت بشرارة من التمرد تطغى عليها. «سأقبل هذه المرة. ولكنك لن تبتزني بالتهديد بأن تأخذه بعيداً عني كل

مرة أرفض لك طلباً. أما إذا كانت الحال ستكون هكذا، فأنا أفضل الذهاب إلى المحاكم من الآن للفصل بيننا.» قالت ذلك وهي تتمنى أن لا يكتشف أدريان أن تمردها هو للتمويه فقط.

بدا على أدريان التفكير العميق. «إن في ذلك عدلاً. وأنا أيضاً لن أعاود هذا التهديد. إننا متزوجان منذ وقت طويل كي تعرفي أني رجل عادل.»

استسلمت جيسي لدقة هذا التعبير. لقد حاربت في الماضي بأسنانها وأظافرها ضد مشاريع رحلاته المجنونة، ولكنه لم يحاول أبداً أن يخفي عنها أو يكذب بشأن ما ينوي عمله. «أنا أعرف.» ردت عليه بهمسة خشنة.

يداه الدافئتان القابضتان على ذراعيها بعثتا شحنة من العواطف لتجري في عروقها. «ستكون هذه المرة مختلفة.» قال لها بكل صدق ونظرته إليها مليئة بالشوق.

كم تود أن تصدقه. هروب سام وإصابته لم يتركا لها الوقت كي تسأله عما أخبرتها به دائينا. «وفر على نفسك كل هذه الوعود.» قالت بصوت متهدج: «لقد عرفت عن رحلتك على متن المكوك الفضائي.»

بدا عليه الذهول. «من أخبرك؟»

«لا يهم من أخبرني. المهم هو، هل هذا صحيح أم لا؟»

خيم عليهما صمت ثقيل ثم أدار وجهه عنها. «نعم، إنه صحيح.»

بحركة عفوية، كمن يحمي نفسه من هجوم، لفت جيسي ذراعيها حول جسمها. «ماذا حدث لإفساح المجال للآخرين على الجبل؟»

«أنا الشخص الذي تلقى الدعوة للمشاركة في الرحلة. واستغرب من كونك لا تزالين تهتمين؟»

بالطبع هي تهتم، أكثر مما تريده أن يعرف. إنها عودة إلى بدء، الكابوس القديم، تنتظر أن تسمع قرعاً على الباب ورسالة تخبرها بأن أدريان قد مات. «لقد وجد سام والده، وليس من العدل أن يخسره ثانية.» شرحت هذا الموقف لأدريان. ربما يكون لسام من التأثير عليه ما لم يكن لها.

بان على محياه الضجر من ضعف حجتها في هذا الجدال. تساءلت جيسي في ما إذا كان يشعر بعمق الحب الذي تكنه له. لو عرف، لما احتاج للجوء إلى الابتزاز. إنها له بكل حواسها، أولاً وأخيراً ودائماً. ولكنه لا يطلب منها إلا سام. «إن ما تقولينه جدير بالتفكير والاهتمام.» قال برقة.

انتعشت الآمال في قلبها. ربما يستطيع سام أن ينجح في ما هي فشلت. وبحذر منعت صوتها من أن يفصح عن انشراحها. «متى سنخبره عن زواجنا؟»

«عندما يعلمنا الدكتور أن صحته قد تحسنت.»

«إنه يعرف أننا كنا متزوجين في السابق.» أخبرته جيسي ورأت في نظرته الدهشة والموافقة.

«إنه يوافق على زواجنا.» قالت بصوت جاف.

«إذاً، هناك على الأقل واحدٌ يوافق على هذا الزواج.» قال ممازحاً.

انتفضت جيسي غضباً: «لا تتوقع مني أن أكون مسرورة مثلكما. لأنه ليس عندي خيار آخر في هذا الشأن، فمن الصعب أن أطير فرحاً.»

«بالطبع لا. ولكن أتوقع منك أن تحتفظي بهذه المشاعر لنفسك عندما يكون سام معنا.»

لا حاجة له في تذكيرها. هي آخر من يجازف بصحة ابنها. أي نوع من الأمهات يظنها؟

فُتح باب مكتب الطبيب ودخل تريفور إدغارد. بعفوية التصقت جيسي بأدريان، وشعرت بتقلص عضلات وجهها وتوتر أعصابها.

وضع أدريان يده على يدها، وأصابعه تشد عليها. «حسناً، يا تريفور؟»

«سوف يمشي ويركض ويقفز. لقد أصيب ظهره ويحتاج إلى وقت كي يشفى تماماً، ولكن الأعصاب لم تتأذ، وهكذا مع الوقت والعلاج الفيزيائي سيعود سام إلى حالته الطبيعية.»

«لا أعرف كيف أشكرك، يا دكتور.»

تجاهل دكتور إدغارد شكرها له: «لا تشكريني، لولا أن أدريان كان حذراً ومتنبهاً في إخراجه من الكهف، لكانت نتيجة الإصابة أسوأ من ذلك بكثير.»

رنت إلى أدريان بحنان ورقة. «لقد أنقذت حياته.»

رمقها بنظرة مهيبة وفخورة. «إنه ابني، وهذا أقل ما يمكن أن أفعله.»

اليوم سمح له الطبيب بمغادرة المستشفى مؤقتاً، كي يحضر حفل الزواج، على الرغم من أنه لا يزال على الكرسي المتحرك، وقد أعطيت تعليمات بأن لا يسمحوا له بالمشي أكثر من بضع خطوات. كانت برفقته ممرضة من المستشفى. قريباً سيعود سام إلى البيت بصورة دائمة.

ولكن جيسي استطاعت أن تنتزع منه وعداً قاطعاً بأن لا يقترب من الجدول بمفرده ثانية.

«لقد وعدني بابا بأن يعلمني على الطريقة الصحيحة.» وعيناه شُعتا من الحماس.

أرادت جيسي أن تبكي عندما كانت تراقب سام يرتدي بدلة الأحد ـ يجلس قريباً على الكرسي المتحرك المزين بشرائط قماش ملونة وضعتها الممرضة ـ وقد بدا صغيراً معرضاً للنوائب.

«هل أنت متأكد بأنك على ما يرام؟» سألته وهي تنظر إلى أعضائه النحيلة ووجهه الشاحب.

«نعم، يا أمي وأريد أن أبقى في البيت.»

طبعت قبلة على جبينه. «في القريب العاجل، يا حبيبي. عندما يسمح لك الطبيب بذلك بعد أن تكون قد تعافيت.»

قال سام بانشراح ظاهر: «إن لديهم مدرسة في المستشفى، هل كنت تعرفين؟»

«نعم، أعرف ذلك.» جيسي كانت قد طلبت من الدكتور إدغارد أن يوفر لسام شيئاً يشغل به عقله النشيط خلال إقامته في المستشفى.

«أنا أستطيع مجاراة الأولاد الكبار في مدرسة المستشفى، في كل ما يفعلون.» قال سام بتحفز.

«هيا، لا تستعجل!» قالت وهي تكتم ضحكة قلقة حاولت الخروج من حلقها. ما أرادت قوله بالفعل هو: «لا تكبر بهذه السرعة.» ولكنها أمسكت لسانها. ليس من العدل نظراً لموهبته، إبطاء تقدمه ولو كان هذا يعني أن يُسلب منه التمتع بطفولته.

«كيف أستطيع أن أبطىء أو أستعجل وأنا لا أستطيع الحراك؟» علق على تحذيرها. وشعرت بالراحة وهو يرتد ليصبح ابن الست سنوات ثانية ويحتج بمنطقه الطفولي الذي لا يتناقش.

ضحكت جيسي على نفسها: «هذا سخف مني!»

ضحك لها سام: «أنا أحبك يا أمي.»

دارت بنظرها إلى حيث أدريان ورأته يتحدث مع أحد المدعوين ببدلته الداكنة وربطة عنقه الرمادية التي جعلته يبدو وكأنه مدير فرقة بهلوانات.

دقات قلبها تسارعت وهي تنظر إليه. بعد اليوم، سيكونان زوجاً وزوجة ثانية. أوه، ليته كان زواجاً فعلياً وليس فقط من أجل سام. لعبت بشعر ابنها. «أنا أحبك أيها الشيطان، أيضاً.»

نزولاً عند إلحاح سام، قادته الممرضة إلى طاولة الطعام. وفيما هي، تراقبهما وهما يبتعدان، شعرت بيدين من الخلف تغطيان عينيها، وجفلت. «خمني من!»

استدارت جيسي على نفسها. «سوزان! أنا سعيدة لمجيئك.»

كتمت جيسي تنهيدة. لولا محاولة سوزان جمعهما ثانية، لما كان هذا الحفل. وكانت ستمضي بقية حياتها تربي سام بمفردها. وكان من المحتمل أن لا يعرف أدريان بوجوده أبداً. إنها غير متأكدة إذا كان يسرها أو يحزنها أن تكون محاولة سوزان قد أعطت ثمارها.

أمسكت بها سوزان على بعد ذراع. «هذا ما كنت تريدينه، أليس كذلك؟»

عيون وقلوب منتديات

قد يكون هذا جنوناً، ولكن هذا ما سعت وراءه. «نعم، أنا أحب أدريان بالفعل.» أجابت بكل صدق وإخلاص مما أقنع سوزان: «تعالي معي، سأطوف بك على البيت كي تري كيف جددنا المكان.»

«لقد حولت هذه الغرفة إلى غرفة حديثة وعملية وحافظت على لمستها التقليدية.»

«إذاً، هذا التصميم الجديد لا يزعجك؟»

تقوس حاجبا سوزان. «يا للسماء، لا يا عزيزتي. هذا المكان هو بيت وليس معبداً. وعلى ربة المنزل أن تغير الأشياء وتبدل، حسبما يناسبها.»

أمسكت سوزان بذراع جيسي وهما في طريقهما إلى الخارج. «أنا سعيدة من أجلك ومن أجل أدريان. هذا المنزل بحاجة إلى عائلة شابة تسرح فيه، ولكن لا حاجة بك لأن تشكريني لأني رتبت بيع المنزل لأدريان. بما أني سأكون عرابة ولدك القادم، فهذا يكفي لرد الجميل.»

التكلم عن الأولاد يجعل الوضع وكأنه قصة حب حقيقية، فكرت جيسي وضميرها يؤنبها. ما يعرفه أصدقاؤها أن نهاية هذه القصة ستكون سعيدة حتماً. ولكن الحقيقة لا يعرفها إلا هي وأدريان.

اقتراب داڤينا داڤيز، أنقذها من الاسترسال في التفكير السلبي، وكان برفقتها توم هولاند منتج مسلسل أدريان الوثائقي.

عرّفت جيسي، داڤينا والسيدة غراتون على بعضهما وتركتهما تتحادثان، وذهبت تبحث عن جو وزوجها كريس، لأن ابنتهما نيل ستكون وصيفة الحفل.

بان على جو عدم الارتياح عندما اقتربت منها جيسي. «أشعر أن كل هذا، سببه غلطتي.» قالت بصوت منخفض.

«أدريان كان سيعرف عاجلاً أم آجلاً، بأن الـ جو هي جوزفين بالحقيقة.» روحت جيسي عنها: «لا تلومي نفسك، وإذا كان هناك من يجب أن يُلام، فأنا أكون ذلك الشخص لأني أحرجتك بهذا الموقف.»

«عندما عرفت عن الكهف، وعن إصابة سام، فقدت صوابي وقدمت نفسي له من دون حذر.»

«وهو جمع أطراف القصة بنفسه.» أضافت جيسي: «فحص الجينات الوراثية أثبت علمياً ما كان أدريان متأكداً منه في قلبه، وما أقوله الآن هو إن سام ابنه ولا شيء في العالم يستطيع أن يغير هذه الحقيقة.»

حتى جو - لم تخبرها جيسي أن سبب الصلح بينهما هو من أجل أن يعرف سام أن عنده أباً. صديقتها تعتقد بما أن قصة الـ جو قد انتهت فقد قررا اعطاء زواجهما فرصة ثانية، وهي لم تخف سرورها. كانت جو تتضح بالسرور لزواجها من كريس نابير، وعلى عادة جو، فإنها تريد أن يكون الجميع مسرورين مثلها.

أمسك كريس بذراع جو. «من الأفضل أن نأخذ أماكننا، إن الحفل على وشك البداية.»

عندما اتجهت نحوه برأس مرتفعة، رأت نوراً غريباً يشع في عينيه، ويختفي ثانية، ولم تستطع أن تقرأ من تعابير وجهه شيئاً.

إرتدت جيسي تنورة مخططة، ومطرزة على الحواشي، وبلوزة من الحرير تصل إلى أدنى من خصرها ومربوطة

على جانب واحد. غطاء الرأس كان مصنوعاً من قماش التول. اللون العاجي لثيابها أضاف بريقاً على لون بشرتها الملوحة بالشمس. وعلى عنقها، وضعت هدية أدريان للزواج ـ عقداً من شريط واحد من اللؤلؤ العاجي اللون.

نظرته إليها دلت على استحسان ذوقها وأحست بدفء أدريان وهي تأخذ مكانها إلى جانبه. «مستعدة؟»

«نعم.» أجابته متمتمة، وكادت أن تفغر فمها عندما أمسك بيدها. بالمقارنة مع يدها الحارة أحست أن برودة يده منحتها الإطمئنان ـ وتشابكت أصابعهما.

شد على يدها وشعرت بتوتر أعصابه يشع من داخله ويربكه. لماذا هو متوتر؟ ربما لأنه يخاف أن لا تستمر في هذا الحفل، وتجبره على أن يقاتل كي يحصل على حضانة سام.

كان الحفل جميلاً وشاعرياً، الدموع ترقرقت في عيني جيسي، وهي تردد كلمات القسم الزوجي، أمام الكاهن، الذي تحول إلى قسم تأكيدي لزواجهما. ليت هذه الكلمات عنت شيئاً لأدريان كما عنت لها، فكرت جيسي وهي تسمع أدريان يردد الكلمات بنبرة واضحة ولكن من دون أن تشعر أنه يعني ما يقول.

«والآن تستطيع تقبيل زوجتك.» أنهى الكاهن الحفل.

تردد أدريان في هذه اللحظة. هل ينوي إطالة هذه المهزلة أمام أصدقائه؟

علت تنهدات المدعوين. «هذا ما أدعوه قبلة الزواج.»

ابتسمت بحرج ونظرت إلى كريس نابير الذي قال غامزاً: «لا تعيرونا انتباهكما، هيا تابعا.»

وخزت جو بمرفقها، كريس بضلوعه. «توقف عن ذلك، ألا ترى الاحمرار قد علا وجهها استحياء؟»

فوجئت جيسي لهذه الملاحظة. فوجهها لم يعلوه الاحمرار استحياءً منذ سنين، والتفكير بأن مشاعرها نحو أدريان كانت واضحة للجميع، أصابها بالإحراج الشديد. ماذا لو تكهن كيف تشعر نحوه؟ بالطبع إن مشاعرها نحوه ليست جزءاً من خطته، عندما اقترح عليها العودة إليه؟ وأدريان أوضح مشاعره نحوها، عندما أكد لها نيته في السفر على متن المكوك الفضائي.

نظر إليها باستغراب، عندما ابتعدت عنه بتصميم. شعرت خلال الاستقبال بأن عينيه لا تفارقانها طوال الوقت. ومرة رأت شبح ابتسامة يلوح على شفتيه، ولكنها اختفت عندما رآها تنظر إليه. لا شك أن لديه سبباً للابتسام، فكل شيء جرى حسبما أراد.

وضعت تشكيلة من الطعام الفاخر على طاولة كبيرة في الحديقة الأمامية. وقد أنعم الله عليهم بيوم ربيعي جميل ووفر عليهم الحاجة لنصب خيمة استأجرها أدريان تحسباً للطقس الرديء.

تنقلت جيسي بين المدعوين، مشرفة على الضيافة متأكدة من أن كلاً من المدعوين قد قدم له الشراب والطعام. وعندما اقتربت من داڤينا داڤيز وتوم هولاند قفزا مبتعدين عن بعضهما مثل تلامذة مدرسة مذنبين.

«يبدو أنه يوم رومانسي.» علقت جيسي.

نظرت داڤينا حولها وعلى ملامحها ظهر القلق. «هل رآنا أحد غيرك؟»

تصنعت جيسي البراءة. «رأى ماذا؟»

ضحكت دافينا بانزعاج. «بارك الله فيك، يا جيسيكا. إننا لا نود أن نقرأ في الصحف اليومية غداً بأننا خطبنا لبعض.»

«حتى لو كان هذا النبأ صحيحاً؟»

رفع توم كأسه: «هذا نخب ما نأمل في تحقيقه. بعد أشهر من ملاحقة دافينا ورمي نفسي عليها، تنازلت وأعارتني انتباهها.»

دفعته بعيداً مداعبة. «أنت تجعلني أبدو كأني سيدة السيدات.»

«بالنسبة لي، أنت سيدة السيدات، وفي ألطف صورة.»

مدت جيسي لهما يدها مصافحة. «أنا سعيدة جداً بكما، أتمنى لكما كل خير.»

أومأت دافينا لها. «لقد مضى وقت طويل قبل أن نتبين حقيقة مشاعرنا نحو بعضنا، ربما لأننا نعمل في المهنة نفسها. فالتفاهم سيكون سهلاً ونتجنب السقطات. أنا لا أحاول إلقاء محاضرة عليك. مشكلاتك مع أدريان لا يحلها غيركما، أليس هذا ما سوف تفعلين؟»

نعم، إذا أخذت بالاعتبار أن تجنب الخوض في المواضيع الشائكة، حل بذاته، افتكرت جيسي بوجوم. لماذا يجب أن تكون الطرف الوحيد الذي يتنازل؟ إن علاقتهما، على هذا المنوال لن تحقق أي تقدم في المستقبل. «كل علاقة تختلف عن غيرها.» قالت جيسي بطريقة تفصح عن رغبتها في تغيير الموضوع: «ما هي مشاريعك الجديدة بعد الانتهاء من مسلسل «على حافة الحقيقة»؟»

«سنعمل معاً.» أجاب توم بحزم: «وبصراحة لقد أعطانا ابنك سام فكرة العمل الجديد.»

تقوس حاجبا جيسي إلى الأعلى. «حقاً؟»

«نعم. لقد اكتشفنا مدى انجذاب الأطفال إلى الظواهر الطبيعية، لذا نأمل أن نقنع الإدارة بإنتاج مسلسل علمي للأطفال.»

«ونريد من سام أن يكون مستشارنا الفني، ويخبرنا عما يهم الأولاد.» أضافت دافينا.

لم يكن باستطاعة جيسي الرفض، لعلمها المسبق بأن سام سيطير فرحاً من هذا الاقتراح، ولكنها شعرت بهبوط في قلبها. إن هذا هو حلقة أخرى من سلسلة الأب ـ الابن الغامضة التي تربط سام وأدريان معاً. ما الذي سيلي ذلك؟ تسلق الجبال؟

«أنا متأكدة من أنه سيتمتع بذلك.» أجابت جيسي وهي تشعر بالضعف.

مرت بقية اليوم بلمحة بصر. وبقدرة قادر، لم تقل جيسي ولم تفعل إلا الأشياء المناسبة ـ حتى الوقوف أمام الكاميرا وذراع أدريان حول خصرها بدا وكأنه صيغة لمناسبة سعيدة.

وأخيراً، حان وقت انصراف المدعوين. بدا سام متعباً ولكنه سعيد، وقد صرف معظم وقت بعد الظهر بصنع طائرات ورقية، ويطلقها من جلسته على الكرسي المتحرك، ويترك لنيل ملاحقتها. ولم يعترض عندما اقترح أدريان أن يعيده مع الممرضة إلى المستشفى.

وحيدة، حاولت جيسي مساعدة الذين أشرفوا على

عيون وردية منتديات

تحضير الطعام وتقديمه، ولكنها وجدت نفسها تقف في طريقهم. أخيراً، قررت أن تذهب إلى بيت الحراس لتعاين مدى التقدم في العمل.

وجدها أدريان هناك، وهي تطوف في البيت من غرفة إلى أخرى تتفحص العمل المنجز. «هل أنت سعيدة بهذا المنزل؟» سألها.

«يبدو لي جميلاً. لم أعرف أن هذا البيت يحتاج إلى كل هذه الاصلاحات.»

«إنه منزل قديم. وأنا أعرف أنك تريدين الاحتفاظ به.»

هل هذا يعني أن يستمرا بالعيش منفصلين؟ لم تطرأ على بالها هذه الفكرة، وأحست على الفور بالإنذار.

«باستطاعتك تأجيره، فتحصلين على مدخول يكفيك، إلى حين إنهاء عملك في منتزه غراتون.» اقترح أدريان عليها. وكانت جيسي قد أخبرته عن عرض دافينا: «أنا أفترض أنك تريدين الاحتفاظ باستقلالك المالي عني.»

تقديره للأمور لمس شغاف قلبها. وفي الحقيقة، لم تكن تحبذ الاعتماد كلياً عليه، مادياً أو في أي مجال آخر.

«أنا شاكرة لك طرح هذا الموضوع.»

تقلصت زوايا فمه وكأنه يكتم ابتسامة: «أنا لست عديم الحساسية وأنا واع تماماً لاحتياجاتك.»

شعرت بالحياء والحراجة لأول مرة منذ سنين، وهي في رفقته، كما لو انهما بالفعل متزوجان حديثاً وليلة عرسهما على وشك أن تبدأ. الكلمات التي من عادتها أن تنساب بسهولة من فمها، علقت بحنجرتها. لم تستطع التفكير بأي شيء يمكن أن تقوله.

وكأن أدريان أحس بعدم ارتياحها، أخذ بيدها وقال: «هيا، لنذهب إلى البيت.»

وفي لحظة اختلط عليها الأمر. إن هذا هو بيتها وليس قصر أدريان فقط. لقد أقسمت اليوم بخشوع وستحترم قسمها. وهذا يعني أنه أينما كان أدريان، فهذا المكان هو بيتها. من دون اعتراض أسلست له القياد على الطريق الفرعية باتجاه البيت.

ذهب العاملون وبدا البيت موحشاً إلا من أشعة الضوء الذهبية الصادرة عن مصابيح الحديقة.

وجدت جيسي، عندما دخلت البيت، أن أدريان قد وضع زجاجة من الشراب في وعاء فضي مليء بالثلج وإلى جانبها وضع كأسين من الكريستال المحفور، وصحناً من الكافيار المحاط بقطع من الخبز المحمص. وعلى صحن إضافي رأت حبات الفريز الكبيرة مما أسال لعابها. «يا لها من مأدبة!» استوضحت جيسي.

«مأدبة زواجك، يا مدام.» قادها إلى الأريكة العريضة وأجلسها عليها، ثم وضع قليلاً من الكافيار على قطعة خبز ومد يده إليها. أخذت جيسي قطعة الكافيار بفمها، وشعرت بلوعة الألفة التي أشعلت نيران الرغبة، عندما لامست شفتاها أطراف أصابعه وتابعت العض.

«لقد مضى علي وقت طويل في هذا الحرمان.» تمتمت جيسي.

صوت التأوه كان كل ما يحتاجه أدريان، وبحركات انسيابية، نزع عنه ربطة العنق والقميص، وبدت عضلاته على ضوء المصباح بلون البرونز.

حاولت أن تقنع نفسها بأن ما يحدث لها الآن هو لمرة واحدة فقط، ولذا سمحت لنفسها أن تحس وتشعر لا أن تفكر، وأجبرت نفسها على نسيان سبب زواجه منها. وخيال الحب طاف في مخيلتها.

«حبيبتي!» اشتياق أدريان لها مزق قلبها.

ولم تلاحظ على نفسها أنها انخرطت في البكاء إلا عندما رأت أدريان يمسح الدموع عن خديها بيده. «أنا على ما يرام.» قالت. دموعها كانت دموع السعادة على ما تمتعت به، ولكنها لن تفصح له عن ذلك.

«أرجو أن لا أكون قد أصبتك بأي أذى.»

لا لم يصبها بأي أذى جسماني، وهو ما كان يظنه. هزت رأسها بالنفي.

منذ زمن وهذه الليلة كانت تلوح في الأفق. كانت مستيقظة تسمع تنفسه البطيء. وبحذر، غيرت وضع استلقائها كي تستطيع التمتع بالنظر إليه. لماذا لا تكون حياتهما هكذا دائماً؟ الحب العميق نادر الوجود وقيّم. ولا شك أن في قلبه متسعاً لها ولابنهما سام.

قررت جيسي، عندما استيقظت في الصباح، أن تخبر أدريان عن حقيقة مشاعرها نحوه، ولكن احتمال أن يصدها كان كبيراً وجعلها تتردد. لا تستطيع غض النظر عنه، ولكنها الطريقة الوحيدة. إنها تحبه، كما هو، رجل مخاطر أم لا، وقد حان الوقت كي يعرف. ولكن ماذا لو وقع حادث للمكوك الفضائي وخسرت أدريان وفرصتها الثانية معه؟

الفصل العاشر

ما الذي يميز هذا اليوم عن غيره؟ تداعت أفكارها. اليوم هو اليوم الأول مما تبقى من حياتها مع أدريان.

كان في نية جيسي أن تخبر أدريان كم هو عزيز عليها. ولن تسمح لجبل مهما كان ارتفاعه، ولا لوادٍ مهما كان انخفاضه، أن يفصلا بينهما ثانية. إن ركوب المخاطر، هو جزء كبير من شخصية أدريان، وهي سوف تحب كل جزء من شخصيته، وليس فقط الاجزاء الأخرى منها التي قد ترضي نزواتها. وربما بذلك يمكنها استرداد حبه لها، كما أحبها في الماضي.

أدهشها اللمعان الذهبي في عينيها المضيئتين وهي ترى انعكاسهما في المرآة، شيء لم يكن موجوداً ليلة البارحة.

بعد أن أخذت حماماً وارتدت بنطالاً رمادي اللون وقميصاً من الحرير الأبيض، نزلت جيسي نحو المطبخ. يبدو أن أدريان قد استيقظ باكراً وتسلل بهدوء من غرفة النوم، كيلا يوقظها. وعندما استيقظت وجدت مكانه في السرير بارداً.

ولكنها لم تجده في المطبخ – بل وجدت عصيراً من الكرييفروت وفاكهة على الطاولة أمام المقعد الذي تجلس عليه عادة. ورأت جيسي مذكرة تحت كوب العصير، ونظرت إليها شزراً وكأنها تقول أعوذ بالله.

«صباح الخير، جيسيكا.» بدأ أدريان مذكرته: «أنا آسف لذهابي، ولكنه نداء الواجب، لا وقت لدي لأشرح لك التفاصيل. أطلبي توم هولاند في الاستديو وهو سوف يشرح لك الموقف. أدريان.»

إذاً، أهذا ما أعنيه له، لم يذيل مذكرته بـ: «مع حبي، أدريان.» بل ذيلها بـ «أدريان» فقط. من المؤكد أنهما لم يخططا لقضاء شهر عسل ولكنها، بشكل ما، قد ظنت... لا، جيسي لم تحسب حساب ذهابه إلى العمل في هذا اليوم بالذات كما يفعل في الأيام العادية.

تبخرت سعادتها بسرعة. ربما تبخرت سعادته التي بدت عليه بالأمس، أيضاً. لقد أفصح عن نياته بوضوح، هو يريد الحصول على حضانة سام ولو أدى الأمر إلى أن يتزوجها. كيف سمحت لبريق النجوم في عينيها أن يعميها عن هذه الحقيقة؟

أدارت جيسي رقم الاستديو، بيد مرتجفة، وطلبت توم هولاند على الخط. أحست من نبرة صوته أنه متوتر الأعصاب. «كيف حالك هذا الصباح، يا عزيزتي جيسيكا؟»

اختلطت الأمور عليها، وأجابته: «لقد ترك أدريان البيت متوجهاً إلى العمل وأعلمني أن باستطاعتك أن تشرح لي.»

شتم توم نفسه ثم اعتذر: «لقد كنت أظن أن أدريان قد أخبرك البارحة، لقد قدموا ميعاد إطلاق مكوك الفضاء عدة أيام وتوجب عليه الانتقال هذا الصباح إلى كاب كانفيرال في فلوريدا.»

وكأنها أصيبت بالعمى، فقد أخطأت عدة مرات في وضع سماعة الهاتف في مكانها. ما أغباني، ما أغباني، ما

أغباني! أخذت تصرخ في نفسها، لقد تزوجني ثانية البارحة في الوقت الذي كان يعرف أنه سيرحل في الصباح. وغمرها شعور بالهزيمة أمام الأمر الواقع. ماذا يمكنها أن تفعل إذا كانت حاملاً منه ثانية، ووقع حادث للمكوك؟

جلست جيسي على مقعد في المطبخ وهزت جسمها من الأمام إلى الوراء وبالعكس، النيات الطيبة شيء، والوقائع شيء آخر. إنها تريد أن تدعم أدريان بكل قواها، ولكن موجات من مخاوفها القديمة أغرقتها، واضطرت أن تصر بأسنانها كي لا تصرخ.

جلست في المطبخ بلا حراك مثل تمثال. وعندما دخلت جو عليها وألقت النظر على وجهها المتجهم، غمرتها بذراعيها وأخذت تهدهدها كما تهدهد ابنتها نيل.

عطف جو عليها دمر آخر حواجز التماسك عند جيسي، فبكت بحرقة حتى جفت دموعها.

«هل تشعرين بتحسن؟» سألتها جو. وابتعدت عنها ثم وضعت وعاء الشاي على النار، وفنجانين على الطاولة.

«كلا، لا أشعر بتحسن، إني أشعر بالخواء والوحشة.»

«هل تريدين التحدث في هذا الموضوع؟»

شرحت جيسي، من دون توقف، ما حدث معها: «أريد التمني له بالعودة سالماً، ولكن... كل ما أستطيع التفكير فيه هو... ما المكروه الذي يمكن أن يقع؟ دائماً، أتخيل أنه قد أصيب أو مات.» وأخفت وجهها بين يديها.

«لا تستطيعين الاستمرار في هذا القلق، فهذا يعني أنه لو سنحت الفرصة لك، فأنت لن تدعيه يغيب عن نظرك. وتعرفين أن ذلك مستحيل.» علقت جو.

رفعت جيسي وجهها الملطخ بالدموع. «هل تعتبرين هذا القلق البالغ عليه، غلطاً كبيراً؟»

أسندت جو منكبيها على كونتوار المطبخ وقالت: «دعيني أوضح لك، هل عندك فكرة عما سيحدث لسام، إذا لم تسمحي له بالمجازفات الصغيرة؟»

«في هذه الحالة، سام لن ينضج ولن يتعلم.»

«تماماً. كل شخص بحاجة للقيام ببعض المجازفات كي ينمو وينضج. في بعض الأحيان القيام بالمجازفات يكون أسهل كثيراً من مراقبة من يقوم بهذه المجازفات وانتظاره.»

«هل حالتك مع ثورن كانت كذلك؟»

أومأت جو. «عندما كان ثورن يخدم مع شرطة النجدة، كنت أتخيل كل أنواع النوائب الوهمية التي قد تنزل به وأحزن لذلك. وعلى الرغم من أني كنت أعلم أن عنده التدريب الكافي والخبرة الواسعة، فقد بقيت على قلقي الشديد. ثم، في يوم، قررت أن لا أبقى في البيت أكنس وأمسح.»

أثار هذا الكلام اهتمام جيسي، مالت نحو جو. «إذاً، ماذا فعلت؟»

«بدأت أذهب معه في المهمات، كي أبرهن لنفسي عن مقدرته في مواجهة الأخطار والتعامل معها.»

«ذهبت معه في مهمات انقاذ؟ هل كنت معه عند...»

«لم أخبرك بذلك من قبل، نعم، كنت معه. وكنت حاملاً في الشهر الثامن. لقد أمسكت بيده حتى النهاية. أتعرفين ماذا؟ أنا سعيدة لذلك. لقد شعرت وقتها أن الجميع قد ركبوا دواليب وأتى إلي، ولكن الذي فعلته ساعدني على أن أقبل

الواقع المرير في النهاية وأعطاني الفرصة كي أودعه الوداع النهائي.»

بكت المرأتان، عندما انتهت جو من سرد قصتها ـ جيسي بكت لأجل صديقتها ولأجل نفسها. وأخذت قراراً: «سوف أسافر وأشاهد عملية إطلاق المكوك الفضائي.»

شدت جو على يد جيسي بيدها. «ما الذي أخر قرارك هذا كل هذا الوقت؟»

الرحلة الوحيدة التي حظيت بها جيسي في هذا الوقت القصير، هي رحلة محلية تأخذها إلى سيدني في ساعة متأخرة من المساء، حيث تأخذ طائرة دي سي ١٠ الكبيرة ـ بعد توقف في عدة مطارات وتبديل الطائرة ـ إلى مطار أورلاندو في فلوريدا.

طالت الرحلة عشرين ساعة. ووصلت جيسي مطار أورلاندو مرهقة تشعر بانعدام توازنها. وبسبب فارق الوقت بين أستراليا وفلوريدا، فقد وصلت في الوقت المناسب لمشاهدة عملية الاطلاق.

فيما كانت تبحث عن حقائبها في جناح تسلّم الحقائب، فوجئت باسمها ينادى به عبر ميكروفون المطار. من يا ترى؟ الشخص الذي يعرف بمجيئها إلى هنا، إضافة إلى جو، هو توم هولاند.

يبدو أن توم اتصل بأحد مساعدي أدريان وطلب أن يرسلوا شخصاً لاستقبال جيسي في المطار عند وصولها.

«هذا لطف منك.» قالت جيسي للأميركية الشابة التي كانت في استقبالها.

«لقد أخبرنا توم بأن نكتم عن أدريان خبر مجيئك ونتركه

مفاجئاً له. لذا لم يخبره أحد بوصولك.» أخبرتها الفتاة.

غمر الانشراح صدر جيسي. فهي لا تريد أن يعرف أدريان بوصولها حتى إلى ما بعد الغداء. إنها وضعت، أيضاً، برنامج انتقالها إلى قاعدة ادواردز الجوية في كاليفورنيا، كي تكون على مقربة من محطة الهبوط عند عودة المكوك إلى الأرض.

«هل تودين الانضمام إلى زوجات طاقم السفينة، في مراقبة عملية الاطلاق؟» سألتها الشابة.

قفز قلب جيسي لهذا الاقتراح. مجرد التفكير بمراقبة زوجها أمام هؤلاء النسوة، المعروف عنهن الشجاعة وقوة الاحتمال، أرعبها حتى الموت. إنها لا تريد أن تكون الشخص الأول الذي سينهار في حال وقوع حادث للمكوك.

«إسمعي، لا أقصد أن أكون غير ودودة...» بدأت الحديث.

ابتسمت الشابة، وقد فهمت ما تريد جيسي قوله. «هل هذه هي عمليه الاطلاق الأولى التي تشاهدينها؟»

«نعم، إنها المرة الأولى.»

«أنا أعرف ماذا تفضلين. تودين أن تكوني بمفردك عند مشاهدة عملية الاطلاق. لا تقلقي، فقد مررت بهذه المرحلة قبلك وأعرف ما هو شعورك تماماً. لقد كان أبي رائد فضاء وتربيت في هذه الأنحاء، مازلت أتذكر التوتر النفسي الذي اعتراني عندما قام أبي بأول رحلة له في الفضاء.»

ربتت الشابة على كتف جيسي. «يجب أن أعود للعمل الآن، سائق الاستديو سيكون بخدمتك، سيأخذك إلى الفندق أو إلى حيث تشائين.»

لم تكن جيسي تتوقع أن تعامل بهذه الأبهة،

سيارة مع سائقها. «أريدك أن تأخذني إلى مكان ما.»

وضع السائق أصبعه على قبعته علامة التحية. «بالتأكيد يا سيدتي، إلى أين تريدين الذهاب؟»

«أريد مشاهدة المكوك، الآن. هل تعرف مكاناً أستطيع منه مشاهدته؟»

تقلصت عضلات وجهه وقال: «يمكنك مشاهدة المكوك من أي مكان على دائرة تبعد خمسة أميال من منصة الاطلاق.»

«أوه، لم يكن عندي فكرة عن ذلك.»

«أستطيع أن آخذك إلى المنصة الرئيسية على طريق ناسا إذا شئت.» اقترح السائق.

جيسي لا تريد أن تكون من ضمن الرسميين المراقبين، للسبب نفسه الذي رفضت من أجله الانضمام إلى زوجات طاقم المكوك.

«كلا، لا أريد الذهاب هناك، أريد فقط مشاهدة المكوك.»

لاحظت جيسي، من على بعد عدة أميال من منصة الإطلاق، أن تعرقل السير وصل حداً جعل السيارات ملتصقة ببعضها. «ماذا تفعل كل هذه السيارات هنا؟» سألت السائق.

«إن اطلاق هذا المكوك، هو المهمة الأكثر طموحاً منذ معاودة الرحلات ثانيةً عام ١٩٨٩.» أوضح السائق لها. «ليبرتي ستذهب إلى أماكن لم يصلوا إليها من قبل وسوف تضع قمراً اصطناعياً في هذا المدار البعيد، وتعيد قمراً آخر. وكل شخص يريد أن يأتي إلى هنا لمشاهدة هذا الحدث التاريخي. أنظري إلى المكوك، ها هو!»

كانت الرؤية قد حجبت بسبب سير هما على طريق منخفضة

مليئة بالأشجار - ورأت جيسي المكوك الفضائي الأبيض اللون. منظره على حافة المحيط الأطلسي كان مذهلاً. وقد بدت هذه الآلة الرائعة مثل سهم موجه نحو السماء.

على الرغم من مخاوفها، شعرت جيسي بالزهو، وقد امتلأ رأسها بصور الرواد مندفعين نحو الفضاء، مئات الأميال فوق سطح الأرض في طائر أبيض عملاق. أخنقتها الأحاسيس ونظرت نحو الأفق.

«لقد أثر بك منظر المكوك، أليس كذلك؟» قال السائق وقد اختنق صوته بسبب تأثره هو أيضاً.

أومأت برأسها وهي مذهولة إلى درجة عدم استطاعة الكلام. قالت عندما سيطرت على صوتها ثانية: «أريد الذهاب إلى الفندق الآن، من فضلك.»

وجدت جيسي باقة جميلة من الزهور وسلة من الفاكهة المتنوعة الطازجة، موضوعة على الطاولة داخل حجرتها في الفندق ويبدو أنها تحية قدوم من إدارة الفندق.

أغرقت جيسي وجهها في الباقة، تستمتع برائحتها العطرة. اهتمام توم بتدبير استقبالها في المطار، وخدمة الفندق الممتازة، جعلا جيسي تشعر بالدلال والامتنان. أدارت التلفاز وجلست كي تشاهد انطلاق المكوك.

أول ما ظهر على الشاشة الصغيرة، كانت لقطة مقربة للمكوك ليبرتي، وقد أثارت هذه اللقطة جيسي كما أثارتها رؤية المكوك فعلياً قبل قليل.

انتقلت كاميرا التلفزة بعد ذلك إلى غرفة التحكم بالاطلاق، تُعرف على مختلف الأشخاص المسؤولين عن العملية. انتظرت جيسي بلا طائل ظهور أدريان على الشاشة أو أي

شخص آخر من الاختصاصيين الآخرين الاضافيين، على الرغم من ورود أسمائهم على لسان المذيع. رائدة فضاء شابة أخذت مكان رائد فضاء مسنّ وقع مريضاً. بدت أنها حبيبة قلب كاميرات التلفزة. وقد اختنقت جيسي وهي تنتظر أن تزاح الكاميرات عن وجهها.

ثم جاء إعلان فيه أن إطلاق المكوك سيؤجل إلى وقت آخر، بسبب عطل طرأ على أحد أجهزة الكمبيوتر داخله. «وحتى يتكلم هذا الكمبيوتر مع الأجهزة الأخرى، ستبقى العملية مؤجلة.» أضاف المذيع موضحاً الموقف.

«إنس الكمبيوتر، أين أدريان؟» صرخت جيسي، بلؤم على شاشة التلفاز. وكأن الجهاز قد سمعها وأذعن لأمرها، فقد لمحت أدريان وهو بعيد، من خلف المذيع، في غرفة التحكم.

بعد ذلك، اختفى أدريان، من على الشاشة ثم جاء إعلان آخر، فيه أن إطلاق المكوك سيتأخر عدة ساعات حتى يجدوا العطل ويقوموا بإصلاحه. عاودت التلفزة برامجها العادية. حدقت جيسي إلى الجهاز وهي تتساءل عما تفعله خلال هذه الساعات.

شعرت جيسي بالألم في كل أنحاء جسمها، وحتى العظام، بسبب الإرهاق والسفر الطويل بالطائرة والتوتر النفسي. هل كانت جو على خطأ؟ الانتظار هنا ليس أسهل من الانتظار هناك.

ولكن مع ذلك... إنها تحس بنوع من الارتياح، بسبب معرفتها بأن أدريان هو على بعد بضعة أميال فقط منها. ولو أنها شاءت، لتمكنت من مشاهدة عملية الإطلاق من مكان

أقرب، ولكنها اختارت أن تعزل نفسها في حجرة الفندق. وبما أنه اختيارها، شعرت جيسي أنه من السهل تقبله.

أغلقت جيسي التلفاز، مستعملة جهاز التحكم عن بعد. لا فائدة من مشاهدة التلفاز ساعات طويلة بانتظار الاطلاق، وربما يتأخر أكثر من ذلك.

اتصلت جيسي بعاملة الهاتف في الفندق وأعطتها تعليمات كي توقظها عندما يعلنون عن موعد جديد لاطلاق المكوك. ولم تبد عاملة الهاتف أي استغراب لطلبها لأنه، على ما يبدو، قد تلقت مئات الطلبات المماثلة لطلبها من الزوار الذين يأتون لمشاهدة عمليات إطلاق السفن الفضائية.

«على فكرة، أريد أن أشكر إدارة الفندق على باقة الزهور وسلة الفاكهة، إنها فكرة استقبال جيدة.»

سكتت العاملة لبرهة. «أعذريني يا سيدتي، لم أفهم.»

«الهدايا التي وجدتها في غرفتي، أريد أن يعرف المشرفون على الفندق كم أنا ممتنة لهذا التقدير.»

«بالطبع، يا سيدتي. سأخبرهم.»

هذا مستغرب، وضعت جيسي السماعة وهي تفكر. تصرفت عاملة الهاتف وكأنها لا تعرف شيئاً عن الزهور والفاكهة. ربما أنها موظفة جديدة، أو أن الإدارة استحدثت هذه الخدمة مؤخراً. وهزت رأسها، طارحة هذا التساؤل جانباً.

وأخيراً بوركت جيسي براحة البال. إنها هنا. وهذا أقصى ما يمكنها عمله كي تبرهن لأدريان عن ثقتها بمقدرته وبقراراته. وقررت أن تنام حتى يحين موعد انطلاق المكوك، كي تستعيد جزءاً من نشاطها.

نامت جيسي ونقلتها مخيلتها من نور الشمس الساطع في

فلوريدا إلى الثلوج البيضاء على سفح جبل إفرست. لقد رأت هذا المنظر عدة مرات في الصور التي التقطها أدريان، بعد قهره الجانب الجنوبي الغربي للجبل في وقت قياسي.

ذهلت وهي تشاهد نفسها تجاهد فوق شلال الجليد لتلحق ببقية المتسلقين، أتى تنفسها متقطعاً، وشعرت بالبرد الشديد يصيبها بالألم في كل مكان مكشوف للهواء من جسمها.

لقد شبه أدريان محاولة تسلق شلال الجليد وقهره، بصعوبته وقسوته والخطر المتمثل به بمحاولة الهجوم البري على قلعة في العصور الوسطى أو محاولة السير في حقل ألغام.

حفروا طريقهم إلى الأمام عبر فتحات بين أكوام الجليد المرتفعة، فيما كانوا يزيحون حبيبات الثلج الساقط، التي التصقت على وجوههم.

كان المتسلقون، على بعد عدة أمتار منها، يثبتون السلالم والحبال في أمكنة، قد تكون سبيلهم الوحيد للنجاة في حال وقوع انهيار جليدي.

أرادت جيسي، بيأس، أن تلحق بأدريان الذي كان في المقدمة، ووجدت أنه مهما حاولت الاندفاع بسرعة في الهواء الخفيف، تبقى المسافة بينهما بلا تغير. «أدريان، انتظر!» نادته، ونظر إليها من فوق كتفه.

توقف أدريان عن الصعود، وظنت جيسي أنه بانتظار أن تلحق به. ولكن توقفه كان لأجل أن يساعد أحد أعضاء الفريق في تركيب جسر فوق هاوية عميقة. تسارعت خطواتها. يجب أن تكون إلى جانبه، ولكنه ظل بعيداً جداً.

ركضت جيسي لاهثة فوق امتداد من الثلج الساقط حديثاً على الطريق، الذي بدا آمناً. تابعتها نظرته المليئة بالهلع، وهو يراها تفتح يديها - الشيء الوحيد الذي فعلته ومنعها من السقوط حتى أسفل الهاوية.

حوم أدريان فوقها، ممسكاً بساعديه القويتين بها من تحت أبطيها، وسحبها إلى خارج الهوة. نظرت إلى الأسفل، وحدقت إلى الحفرة وأحست بدوخة المرتفعات. كانت كمن ينظر إلى صحن كنيسة القديس بولس من قبتها. والانحناء العمودي كان يمتد مئات الأقدام إلى الأسفل ويختفي بين الظلال السوداء.

«ألا تعرفين أنه يجب أن لا تخطي خطوة واحدة على الجبال من غير أن تكوني مربوطة بالحبال؟» أنبها أدريان.

«كلا، لا أعرف. هذا هو تسلقي الأول.» أجابت جيسي وهي ترتجف، لأن احتمال نجاتها كان ضعيفاً جداً.

نظر أدريان إليها باستياء. «إذاً، ماذا تفعلين هنا؟ كان يجب عليك البقاء في البيت مع سام.»

«ولكنني أريد البقاء معك، لا أريدك أن تتركني لوحدي.»

اشتدت حدة غضبه ورمقها بنظرة انتقادية. «هل هذا الذي تخافين منه بالفعل؟ تخافين أن أتركك وحيدة، عندما أقوم برحلاتي الاستكشافية؟»

وأخيراً، اكتشفت جيسي أسوأ مخاوفها، وسمحت لهذه الخواطر أن تتداعى بذهنها لأول مرة. لقد كانت تخاف عليه ولكنها في الوقت ذاته تخاف على نفسها. لقد أرادت الاحتفاظ به لنفسها، لا ليقع فريسة نداء الجبل القاتل ولا يعود لها أبداً.

الهلع الذي شعرت به من احتمال سقوطها في الهوة، بلل ملابسها بالعرق، ولم يكن من الحكمة بشيء أن تحاول تسلق جبل إفرست وهي ترتدي بنطالاً وقميصاً من الحرير. حضنت نفسها. «أنا أشعر بالبرد الشديد، يا أدريان - أغمرني، من فضلك...»

ضم أدريان جيسي بين ذراعيه، وانتقل دفؤه إليها وتوقفت عن الرجفان.

«سوف تتجلدين هنا.» همس في أذنها برقة: «هيا نعود إلى المنزل.»

«نعم يا أدريان، من فضلك.» رجته جيسي: «خذني إلى البيت. خذني إلى البيت.»

«صه، سآخذك إلى البيت.» رد عليها أدريان.

عادت إلى وعيها تدريجياً، ونظرت إليه بعينين زائغتين. وبشكل عفوي، مدت يدها إلى وجهه. «أنا حقيقي. كنت في كابوس، ترددين متاوهة، أشعر بالبرد الشديد.» قال أدريان.

«لقد شعرت بهذا البرد لأني حلمت بأني أتسلق جبل إفرست وأنا مرتدية قميصاً من الحرير.» أجابته وهي تشعر بالإعياء.

غمز بعينه. «تسلق جبل إفرست لم يكن من أفضل أفكارك على الاطلاق.»

التصقت به، وتنهدت بارتياح، فيما كانت ذراعاه تغمرانها. «ما كنت أريده دائماً، هو البقاء معك أينما كنت.»

«أنت معي الآن.» قال بصوت متهدج.

ذهبت آخر آثار الارهاق عنها، وجاهدت كي تبقى واقفة.

«أنت هنا.» رددت بغباء وهي تعود إلى وعيها، وتجد نفسها في غرفة الفندق في فلوريدا: «ماذا حدث لاطلاق المكوك؟»

«طالما الكمبيوترات لا تتكلم مع بعضها، الرحلة مؤجلة وقد تلغى، وقد قررت أن لا أنتظر ذلك هنا.» قال أدريان.

بحثت جيسي في وجهه عن أي أثر للحسرة عليه، وأدهشها أنها لم تجد شيئاً. لقد بدا على الصورة نفسها التي تخيلته بها وهو يتسلق جبل إفرست ـ هادئاً ومنشرحاً وكأنه عقد سلامه مع العالم.

«لا شك أنك أصبت بخيبة أمل.» قالت جيسي.

«أصيب بخيبة أمل، لماذا؟» أنا لم أكن ذاهباً في الرحلة على أي حال.»

هل هي ما زالت نائمة تحلم. «أنا لا أفهم، لقد قلت إنك ذاهب.»

حرك أدريان فمه من جانب إلى آخر. «نعم، كنت ذاهباً، لكن ليس إلى الفضاء. على الرغم من رغبتي الشديدة في أن أكون على متن هذا المكوك، لم أرغب بصرف الوقت في التدريب الضروري لمثل هذه الرحلة. عندما قلت إني ذاهب إلى هناك، كنت أعني أني سوف اسجل الحلقة الأخيرة من مسلسل حافة الحقيقة، من غرفة التحكم الرئيسية.»

«لماذا لم يخبرني توم أو أي شخص آخر عن ذلك؟»

«لأني طلبت منهم أن لا يفعلوا. أردت منك أن تظنني تماماً ما ظننت، ثم تأتين على أي حال.»

«هل أنت متأكد أنك لن تشعر بالحسرة لرفضك عرضهم؟»

«ولماذا؟ كل ما أحتاجه وما أريده موجود هنا على الأرض.»

سؤال آخر كان يدور في رأسها: «كيف عرفت أني هنا؟»

قبّل أرنبة أنفها بلطف الفراشة التي تحط وتطير بلمحة بصر. «من تظنين أنه أرسل الزهور والفاكهة؟»

«لا عجب إذاً، عاملة الهاتف لم تعرف عما أتكلم عندما أخبرتها عنها، هل أخبرك توم هولاند عن مكان وجودي؟»

«لا حاجة له لأخباري.»

كلام أدريان غير منطقي. «من الذي يعرف أني هنا، غيره؟»

«لا أحد. كنت متأكداً من مجيئك.» اندفع شعاع من الحيرة إلى وجهه ثم اختفى ثانية. «على الأقل، كان عندي أمل بمجيئك. شيءٌ ما، أعطاني الاحساس بأنك تغيرت منذ غيابي الطويل. وشعرت انه أخيراً، سيكون بمقدورك أن تثقي بي بما يكفي كي لا تقفي حجر عثرة في طريقي.»

لمست باصبعها أرنبة أنفه وقالت: «امتحانك لي ليس عادلاً. لقد تركتني قبل أن تسألني عن رأيي في الرحلة.»

«بماذا كنت ستجيبين؟»

«كنت سأقول: إذهب برعاية الله.» قالت جيسي بصوت مخنوق، وهذا بالفعل ما كانت ستقوله. «أنا ما زلت لا أحبذ هذه الفكرة، ولكني كنت قد وجدت القوة للتحمل.» وبعد فترة سكون، كانت جيسي تحاول التأكد من أن ما ستقوله، تعنيه. «وبعد ذلك، كنت سوف أوضب حقائبي وألحق بك. وهكذا ترى أنه لو سألتني لما اختلف الوضع عما هو عليه الآن».

«لكن الوضع كان اختلف بالنسبة لي.» قال أدريان: «تمنيت طويلاً أن تعاضديني، ولكن عقلك كان قد أقفل على معارضة رحلاتي بشكل أصبح معه من

المستحيل أن يخطر ببالي أن أسألك في أن ترافقيني.»

«مؤخراً، اكتشفت أن روح المغامرة عندك هي أحد الأسباب التي أحببتك من أجلها.» اعترفت جيسي بصوت مرتجف: «وإذا فقدت هذه الروح تصبح رجلاً مختلفاً.»

أمسك بذراعيها بعذوبة. «أعيدي علي ما قلت.»

أقشعر جسمها. إنها تعرف تماماً ما الذي يريد سماعه منها، ولكنها لم تستطع منع الرغبة في إزعاجه. «هل تعني ما قلته عن روح المغامرة لديك؟»

هزها أدريان مداعباً. «يا للعنة، أنت تعرفين جيداً، ما أعني!»

اتسعت عينا جيسي. «أوه، هل تقصد ما قلته في أني أحبك؟»

«يا للعنة، يا امرأة، أنت مستحيلة...» لم يكمل جملته قط.

«أنا أحبك كما أنت، هل هذا ما تريد سماعه؟» قالت جيسي عندما فسح عناقه المجال لها للكلام ثانية.

«أنا أعرف.» قال أدريان مبتسماً. «كيف تعرفين كل هذا عن مشاعري؟»

«لقد قلت لي ذلك، حين سقطت كل الأقنعة عن حقيقة شعورك. ولهذا قررت أن أمتحنك، لأبرهن على ما أعرفه.»

تصنعت جيسي الاستياء وابتعدت عنه قليلاً. «هل تعني انك أغويتني؟ ما الذي تحضره لي؟»

«ساريك الآن، إذا شئت؟ يا زوجتي العزيزة.» وكان عرضه مغرياً.

بدأ يفعل ذلك، ببراعة قطعت عليها أنفاسها وانهارت جميع الحواجز التي تفصلهما في مواجهة حبهما.

لم تعرف من قبل، أن عنده هذه الرقة والعاطفة تغمرانها بموجة من الشوق وتسلبها كل مقاومة في مواجهة الأحاسيس التي عصرتها.

كادا أن يفوّتا على نفسيهما مشاهدة إطلاق المكوك، عندما نجحوا أخيراً في إصلاح الكمبيوتر. نسيت جيسي العالم الخارجي وهي متقوقعة في أحضانه الدافئة. التقط أدريان لوحة التحكم بيد وكبس زراً لتظهر على الشاشة الصغيرة صورة رائعة للمكوك، فيما كانت يده الأخرى ملتفة بشدة على خصر جيسي.

«ألا يجب أن تكون هناك؟» سألته.

«تستطيع دائماً أن تقوم بالعمل بمفردها.» قال فيما كان يداعب شعرها الناعم: «أما بالنسبة لي، فعندي هنا أشياء أهم من ذلك.»

تنهدت جيسي بعمق، ووقعت نظرته الفضولية عليها. «ماذا بك؟»

«لقد أضعنا كثيراً من الوقت.»

«لم يكن وقتاً ضائعاً، كانت فرصة لنا كي نتعرف أكثر على حقيقة مشاعرنا. في كثير من الأحيان، يقوي اختلاف الرأي الروابط. تدمر رياح السموم، في إفريقيا، مساحات شاسعة من الأرض، ومع ذلك تساعد في دورة الحياة. إن هذه الرياح قد تخرق الأرض وتجعلها قاسية ومتشققة ولكن ما أن يهطل المطر حتى تعاود الحياة دورتها وتزهر البراعم وتنمو الأوراق بسرعة البصر. ومن بين الزهور التي تنمو هناك، زهرة جميلة خاصة تتفتح في كل مكان فور هطول المطر. هذه الزهرة ذات أشواك، ولونها أحمر

داكن لدرجة انها توخز العين ببريقها، قطرها يبلغ ١٠ سنتمترات، وتنبثق من تربة قاحلة تقريباً، بعد هطول الأمطار، ولذلك يدعونها زوجة المطر.»

القت جيسي نظرة على وجه أدريان وتفحصت كل ما هو غالٍ وعزيز من تكوينه على قلبها. «من دون رياح السموم، لن تنبت هذه الزهرة. هل أنا شبيهة بهذه الزهرة زوجة المطر؟»

«أنت أكثر جمالاً وقيمة من زوجة المطر.» وافق على سؤالها: «ولن أدعك تتركيني ثانية. فمن سيرعى ابننا؟»

«ربما يجب التكلم بصيغة الجمع، أولادنا.» أزعجته جيسي. «لم استعمل أي وسيلة لمنع الحمل.»

«إذاً، سوف تحملين، قطعاً.» قال أدريان، «ليس لدي أي مشروع للرحيل إلى أي مكان الآن... ولكن سوف تكون خسارتي باهظة، إذا فعلت.»

بدأ العد التراجعي لإطلاق المكوك، راقبت جيسي الشاشة بذهول، شدت يد أدريان إلى معدتها. «هل تعرف، أن ابننا قد يصبح رائد فضاء عندما يكبر؟»

«هل خطر ببالك انه من الممكن أن تكون ابنتنا؟»

شعرت جيسي بلحظة حيرة. «هل أنت متأكد أنك لا تريد مشاهدة عملية الإطلاق؟»

«كيف أستطيع أن أقنعك، أن أيام المغامرات قد انتهت بالنسبة لي؟» أجابها. وقوست جيسي ظهرها تتأوه: «أخيراً رجع الصياد إلى بيته.»

تمت